

## سورة طه

وهي مع البسمة مئة وستة وثلاثون آيةً وثمانية ركعات\*

هذه السورة مكية بلا خلاف. قد اعتبرها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من السور الأوائل نزولاً حيث ذكرها مع سور بني إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء وقال هن من السور التي حفظتها في بداية إسلامي (البخاري، كتاب التفسير، سورة الأنبياء).  
قد عدّها "ويري" مما نزل في الفترة المكية الثالثة أي قبيل الهجرة، وحجته أنّها تتحدث بإسهاب عن أنبياء بني إسرائيل (تفسير القرآن لـ "ويري").  
وإنّما لجرأة كبيرة من "ويري" أن يقول إنّ هذه السورة نزلت في أواخر الفترة المكية بحجة أنّها تتحدث بإسهاب عن أنبياء بني إسرائيل، مع أنّ هؤلاء قد ذكروا في سورة مريم أيضاً التي تُعدّ من السور الأوائل، ومع أنّ الروايات والتاريخ أيضاً تخالف رأيه؛ حيث بيّننا من قبل أنّ ابن مسعود رضي الله عنه، وهو من الصحابة الأوائل، قد عدّ هذه السورة مما حفظه في بداية الإسلام.

**الربط والترتيب:** إنّ الصلة القريبة لهذه السورة بالتي قلبها تكمن في أنّ الله تعالى قد قال في أواخر سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾، وقد نوقش هذا الموضوع نفسه بشيء من الإسهاب في مطلع سورة "طه". والحكمة في ذلك أنّ "مريم" تتحدث أساساً عن المسيحية التي من عقائدها الحيوية أنّ الشرع لعنة، وقد فنّدت سورة "طه" هذه العقيدة المسيحية الأساسية،

\* بالإضافة إلى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

حيث بين الله تعالى أن الشرع رحمة، لا لعنة، وأنه ليس عبثاً على الإنسان، بل إنه يساعده ويسهّل الأمر عليه، فقال الله تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.. أي إنما أنزلنا عليك القرآن تكريماً لك، وتسهيلاً لأمرك، وليس لكي يلحقك عناء وشقاء. ولذلك قد توخينا عند نزوله السهولة لفظاً ومعنى، فهو بلسانك، وعباراته سلسلة، ومفاهيمه منسجمة مع الفطرة والعقل، والعمل به سهل. فقد رُوِعت في هذا الكتاب الحيلة كلها كيلا يكون عبثاً على الإنسان بشكل من الأشكال.

أما الصلة الواسعة لهذه السورة والتي قبلها فهي أن سورة مريم قد تناولت التاريخ الابتدائي للمسيحية، حيث بين الله تعالى أن المسيح إنما جاء لتوطيد التوحيد، ولكن المسيحيين قد اتخذوه ذريعة للشرك والوثنية، وقاموا بإلغاء الشرع معتبرين إياه لعنة. أما هنا في سورة طه فقد انتقل الحديث إلى بداية السلسلة الإسرائيلية حيث بين الله تعالى أن أكبر إنجاز قام به موسى إنما هو الشرع، فلفت تعالى النظر إلى السلسلة الموسوية بشكل مفصل، مبيّناً أن تلك السلسلة كانت قائمة على أساس الشرع والتوحيد، فلا يمكن عقلاً أن يكون فرعها- أي المسيحية - خلاف التوحيد؛ فنبت أن عقيدة المسيحيين المخالفة للتوحيد إنما هي عقيدة دخيلة على المسيحية فيما بعد. ثم عرّج الله تعالى بالحديث إلى بداية الخلق الإنساني تبياناً لحقيقة الشرع والإثم، التي كان فشل المسيحيين في فهمها هو السبب الرئيسي لإلغائهم الشرع ووقوعهم في وحل الشرك والوثنية. أما إلغاء الشرع فذلك لأننا إذا لم نعتبر الوحي جاريًا منذ بداية العالم لزم التسليم بأن الإنسان قد استطاع في زمن ما أن يعيش بدون وحي وشرع؛ وأما الشرك فذلك لأننا لو سلمنا بعدم نزول الوحي من عند الله تعالى لاضطررنا للتسليم بأن الناس مضطرون لسنّ قانون لأنفسهم، فيعتبر ذلك القانون نائباً عن الله تعالى، أي شريكاً مع الله تعالى.

**ملخص محتواها:** وتتلخص مضامين هذه السورة في أن القرآن قد نزل من أجل راحة الإنسان وسهولته، وليس من أجل شقائه وعنائه. إن فهم القرآن سهل شريطة أن يفتح الإنسان نافذة قلبه. لقد ذكر القرآن أحاسيس الإنسان كلها من أذناها إلى

أعلاها، مع ذكر حاجاتها، وأن الله تعالى قد راعى هذا الأمر منذ بداية الخلق الإنساني، فإنه تعالى عالم بدقائق أسرار الفطرة الإنسانية، وأنه القادر على تلبية حاجات الإنسان كلها. لذلك فالقانون الذي يسّنه الله تعالى للإنسان لا يمكن أن يجلب له الشقاء، بل الرحمة (ملخص الآيات ٣ إلى ٩).

على المسيحيين أن يتدبروا أحوال موسى عليه السلام لفهم هذه الحقائق، ويروا كيف أن الله تعالى أيده بنصره وقت اليأس، وهداه وتجلي له تجلياً يدل على التوحيد. فجعله الله تعالى من عباده المصطفين، وشرّفه بوحيه. وإن أول حكم أنزله الله في شرع موسى هو حكم التوحيد نفسه حيث قال له ﴿لا إله إلا أنا﴾؛ فأوصاه الله وتكلم بعبادته وحده، ووعدّه بالجزاء على كل من الحسنات والسيئات، مؤكداً أن الجزاء أو العقاب يكون وفق العمل، لا طبقاً للكفارة (ملخص الآيات ١٠ إلى ١٦).

ثم أخبر الله تعالى موسى عليه السلام أن الوسيلة الحقيقية لإصلاح القوم إنما هي صحبة الصالحين (ملخص الآيات ١٧ إلى ٢٤).

بعد ذلك بين الله تعالى أننا بعد أن علّمنا موسى الطريق السليم للإصلاح أمرناه بالذهاب إلى فرعون. وعلّمنا لذلك طريق الدعاء الذي يتوجه به العبد إلى الله تعالى وليس إلى أحد سواه. ثم بناء على التماسه جعلنا أخاه هارون نبياً؛ وقلنا له إنها لمتنتنا الثانية عليك، إذ منّنا عليك أول مرة حين قذفت في النهر خوفاً من القتل على يد فرعون، فنحنيناك منه، وأتينا بأهلك إليك (ملخص الآيات ٢٥ إلى ٤١).

ثم يخاطب الله تعالى موسى عليه السلام ويقول: فلما حاربك فرعون حميناك منه ونحنيناك، ولم أزل أرييك روحانياً حتى صرت صالحاً للمهمة المنوطة بك. فقلنا لك اذهب إلى فرعون وانصحه، وخذ قومك إلى وطنك أرض كنعان. فذهب موسى إلى فرعون ووعظه (ملخص الآيات ٤١ إلى ٧٧).

ولكن فرعون أصرّ على الكفر والإنكار، فأمرنا موسى بأن يخرج بقومه، فاتّبعهم فرعون فتعرض للعقاب (ملخص الآيات ٧٨ إلى ٩٩).

ثم تلقى موسى الوحي بالطور، ونزل الشرع الموسوي، وفتح به باب التوبة (ملخص الآيات ٨١ إلى ٨٣).

ومع ذلك أشرك بنو إسرائيل، فعوقبوا، ثم أخرجهم الله من الوثنية إلى التوحيد (ملخص الآيات ٨٤ إلى ٩٩).

ثم يخاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ ويقول هذه هي أحداث هذه الأمة قبل المسيح، ثم جئت أنت وعلمت التوحيد أيضاً. فكيف يستساغ أن ينزل في الفترة التي بينك وبين موسى تعليم غريب يعتبر الشرع لعنة، ويشرك بالله تعالى (ملخص الآيات ١٠٠ إلى ١٠٣).

بعد ذلك تحدث الله تعالى عن العذاب الذي سيحل بالمسيحيين وعن رقيهم الذي سيستمر ألف سنة مما تعدون.. أي من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر من الهجرة، وسيكون ثلاثة قرون منها فترة رقي عال، كما كانت ثلاثة قرون عند المسلمين فترة رقي كبير من بين ألف سنة من رقيهم. ولكن هناك اثنان من الفروق بين رقي المسلمين والمسيحيين: أولهما أن فترة الرقي المدهش للمسلمين هي القرون الأولى من الألف سنة، أما فترة الرقي المدهش للمسيحيين فهي القرون الأخيرة من الألف سنة. والفرق الثاني هو أنه قد تيسرت للمسيحيين فترة ستة قرون لنشر دينهم، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ، أما المسلمون فتتيسر لهم فترة ستة قرون لتمكين الإسلام روحانياً وذلك بعد ثلاثة عشر قرناً من بعثة النبي ﷺ (ملخص الآيات ١٠٤ إلى ١٠٥).

ثم يقول الله تعالى: سيسألك الناس عندها في استغراب: كيف ينسف الله تعالى هذه الجبال.. أي كيف يدمر ﷻ هذه القوى المسيحية الجبارة؟ ولكننا نؤكد لك أنه لا بد أن يهلك هؤلاء، ولا بد أن يكون المسلمون غالبين (ملخص الآيات ١٠٦ إلى ١١٣).

بعد ذلك عاد الحديث ثانية إلى الموضوع الذي استهلت به هذه السورة حيث بين الله تعالى أن فهم القرآن سهل لأنه نزل بلغة أهل هذا البلد - وهذا، على الأغلب، تعبير بالمسيحيين الذين يرون أن الإنجيل كان باليونانية أصلاً - ثم إن القرآن يبين مضامينه أيما بيان، وبالتالي فهو محفوظ من آفات الأمثال والاستعارات التي كثرت في الإنجيل إلى حد مبالغ فيه جداً. لا شك أن القرآن الكريم أيضاً قد

استخدم كلمة "المثل" كقول الله تعالى ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ (الإسراء: ٩٠)، كما ورد قول مماثل في سورة الكهف (الآية ٥٥)، ولكن لم يرد بمعنى الأمثال، بل بمعنى البيان، والمراد أننا قد بينا في القرآن الكريم كل نوع من المواضيع بشتى الأساليب الرائعة (ملخص الآية ١١٤).

ثم بين الله تعالى أن الشرع ليس لعنة، بل هو رحمة؛ فينبغي ألا يتخذ الإنسان بنفسه القرار في الأمور السماوية، بل عليه الانتظار لوحي الله تعالى (ملخص الآية ١١٥). ثم عاد الحديث إلى ما قبل موسى ﷺ أيضاً، حيث أخبر الله تعالى أن ذلك حادث آدم ﷺ الذي يُعتبر الأساس للمسيحية ليس إلا سوء فهم من قبل المسيحيين. ذلك لأن آدم الذي حصل معه هذا الحادث إنما خلقه الله تعالى وفق خطة معينة، وهيئات أن تفشل الخطة الإلهية؟ فقد ورد في التوراة: "فخلق الله الإنسان على صورته" (التكوين ١: ٢٧). ولكنها تضيف أيضاً أن آدم ارتكب الإثم بإغواء حواء (التكوين ٣: ١٢). أما القرآن الكريم فيعلن أن آدم لم يقع في الإثم أبداً، وإنما حصلت منه زلة عن غير قصد، حيث قال الله تعالى عن آدم ﴿فَنَسِيَ﴾ ولم نجد له عزمًا ﴿طه: ١١٦﴾. فثبت أن موقف القرآن أقرب إلى العقل، كما أنه مطابق لما ورد في التوراة بأن آدم خلُق على صورة الله تعالى.

ولكن هناك تعارض في موقف التوراة، فهي تقول، من جهة، إن الله تعالى خلق آدم على صورته، ومن جهة أخرى تعدّ فعله عملاً شيطانيًا. والحق أن آدم إذا كان قد ارتكب الإثم فعلاً فقد فشلت خطة الله تعالى، مما يدل على الضعف والعيب في الله، والعياذ به (ملخص الآيات ١١٦ إلى ١٢٤).

فثبت أن الإعراض عن الشرع هلاك، ولا يتأتى ذلك إلا ممن قد حُرِمَ البصيرة (ملخص الآيات ١٢٥ إلى ١٢٩).

ثم أوضح الله تعالى أنه من الخطأ التفكير أن منكري الصدق لا يزالون موجودين في الدنيا، ولا يعاقبون. ذلك أن لكل أمر موعداً في قانون السماء. فعليك، يا محمد، توجيه العناية إلى إصلاح قومك، فإنك أنت الأعلى في النهاية (ملخص الآيات ١٣٠ إلى ١٣٣).

وأخيراً قال الله تعالى لنبيه ﷺ إن هؤلاء حين يسمعون براهينك يقولون لم لا تأتينا بآية؟ قل إنما الآيات ما قد أتى به الأنبياء في الماضي. أما ما تقترحون من آيات فلا حقيقة لها. لقد مُنح أعداء الأنبياء السابقين المهلة، ولكن لما أُقيمت الحجة عليهم حل بهم العذاب. وهذا ما سيحصل الآن أيضاً، وإلا لتعرض الله تعالى لتهمة الظلم بالناس (ملخص الآيات ١٣٤ إلى ١٣٦).

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### طه

**التفسير:** لقد قلت في تفسير سورة يونس لدى الحديث عن المقطعات القرآنية أن لفظ ﴿طه﴾ أيضاً منها. ولكن تبين لي بالمزيد من التدبر في اللغة وفي أقوال المفسرين ومضامين هذه السورة أن "ط" أو "هـ" هنا ليس اختزالاً لكلمة أخرى، بل هما كلمة مستقلة ومعناها "يا رجل". فقد ورد عن هذا اللفظ ما نصه: "إنها بمعنى "يا رجل" في لغة عُكَلٍ وفي لغة عَكِّ. قال الكلبي: لو قلت لرجل من عَكِّ "يا رجل" لم يجب حتى تقول "طه". وقال قَطْرُبُ: هي كذلك في لغة طي" (تفسير فتح البيان).

علماً أن قطرب كان من كبار اللغويين والنحاة، وكان من أبرز تلاميذ سيبويه. وقد ذكر صاحب "لسان العرب" أيضاً هذا الاستعمال. فيما أن شتى القبائل العربية قد استعملت هذا اللفظ بمعنى "يا رجل" أي "أيها الرجل الكامل القوي" فقد اعتبرت سورة طه تسلسلاً لموضوع سورة مريم.

لقد أُشير بلفظ "طه" أن محمداً رسول الله ﷺ يتحلى بجميع صفات الرجولة مثل الشجاعة والسخاء ومقاومة السيئة وغيرها على وجه الكمال، لذلك فهو الوحيد بين البشر أجمعين الذي يستحق بكل جدارة أن يسمى الرجل الكامل.

وعندما نفحص التاريخ يتبين لنا أن محمداً رسول الله ﷺ كان إنساناً كاملاً حقاً، ومتصفاً أتمّ اتصاف بجميع المزايا الحسنة التي يجب توافرها في رجل كامل القوى والصفات. خذوا مثلاً صفة مقاومة السيئة، فدراسة حياته ﷺ من هذه الناحية تكشف لنا أنه كانت في قلبه الطاهر المطهر رغبة عارمة لمقاومة السيئة لا نجد لها مثيلاً في العالم. وقد دفعته هذه العاطفة الفطرية فيه، حتى قبل بعثته، إلى أن يبحث عن الطريق الذي يؤدي به إلى معرفة الله تعالى. كان الكفر والشرك سائدين في كل مكان حوله ﷺ. لم يكن هناك أمة إلا وكانت تشرك بالله وتعبد الأوثان. فكان حوله اليهود والنصارى وأهل مكة، وكانت هذه الطوائف الثلاث كلها منغمسة في الشرك. فأهل مكة، الذين كان النبي ﷺ يعيش بينهم، كانوا غارقين في الوثنية كلية حتى كانوا يعبدون في الكعبة أيضاً ستين وثلاث مئة صنم (البحاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية). أما اليهود والنصارى فكانوا منغمسين في الشرك أيضاً. لا شك أن اليهود كانوا يرفضون الشرك بأفواههم، ولكنهم اتخذوا واحداً من أنبيائهم ابناً لله وقالوا ﴿عزيزاً ابنُ الله﴾ (التوبة: ٣٠). وكان المسيح عليه السلام قد عددهم مجرمين جراء مخالفتهم وعصيانهم، فكيف يمكن أن تهدي هذه الأمة المحرمة الآخرين. وأما النصارى فكانوا مشركين إذ كانوا يؤمنون بثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد. فلما رأى النبي ﷺ أنه لا يوجد عند أي واحد من هؤلاء الطوائف أي أثر لمعرفة الله تعالى وتوحيده وتفريده، وأهم جميعاً ساقطون في الهوة المظلمة للكفر والشرك، رغب بشدة في أن يبحث عن سبيل مرضاة الله تعالى. ولقد استولت عليه هذه الرغبة حتى عاف الدنيا وكرهها، وأخذ يتجنب مجالس القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام ليل نهار، متبرئاً من الوثنية المنتشرة حوله. ولما كان محاطاً بالوثنيين من كل طرف بحكم إقامته بينهم، حيث كانوا يقدمون القرابين والنذور لأوثانهم، ويقرضون الشعر مدحاً لأصنامهم، فكان من المحال أن يعترفهم كلية، فقرر أخيراً أن ينفرد في مكان ليبتهل إلى الله الواحد الأحد ويستعين به حتى يهيئ من عنده أسباب الهدى. فكانت السيدة خديجة رضي الله عنها تزوده بالطعام الذي لم يكن كطعام الناس اليوم، إنما كان عبارة عن التمر والسويق واللحم المجفف. فكان يذهب بهذا

الزاد إلى غار حراء الذي يبعد عن مكة ثلاثة أو أربعة أميال، حيث يقضي عدة أيام في الذكر والعبادة والدعاء، حتى يهديه الله تعالى وغيره من الناس إلى السبيل الذي يؤدي بهم إلى الله تعالى.

إن هذه الرغبة النابعة في قلبه ﷺ كانت رغبة غير عادية، وكانت أسمى من الاستعانة بالبشر، إذ ما كان لبشر أن يساعده في تحقيقها. في الأمور المادية يمكن أن يساعد المرء أقاربه وأصدقائه بالقوة أو بالمال، ولكن ما كان لأي قوة بشرية أن تعينه في مقصده هذا بشكل من الأشكال. لو كان في زمنه أي دين حق لاستعان به في تحقيق رغبته، ولكن لم يوجد في الدنيا عندئذ أي دين حق، بل كانت الأديان والطوائف كلها منغمسة في الشرك والوثنية. فما كان ثمة قوة يمكن أن تساعده ﷺ في شفاء غليله للتوحيد الإلهي إلا الله تعالى وحده. كانت زوجته خديجة - رضي الله عنها - زوجة وفيه ومواسية له ﷺ، ولكن ما كان بوسعها أيضاً أن تساعده ﷺ بهذا الشأن. ولم يكن أصدقائه ولا أقاربه قادرين على ذلك. ولم يكن رهبان النصارى بقادرين على تقديم أي عون له. كما لم يكن بوسع كهان مكة أن يساعده بهذا الشأن. كان هؤلاء أنفسهم ضالين، فأنى لهم أن يساعده شيئاً! إن فطرته ﷺ كانت أفضل من كل هؤلاء حيث كان يكره الشرك منذ نعومة أظفاره كرهاً شديداً. فذات مرة قابله ﷺ زيد بن عمرو - وكان عمماً لعمر ﷺ، وكان قد تاب عن الشرك في زمن الجاهلية، وكان يعتبر نفسه من كبار المحاربين للشرك - وبعد الحوار دعاه النبي ﷺ إلى الطعام، فقال إني لا أكل طعام المشركين. فقال ﷺ إني لم أشرك قط (البخاري: كتاب المناقب، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل). ولكن هذا الشخص كان قد تبرأ من الشرك نتيجة صحبة اليهود، وأما النبي ﷺ فقد خلق بفطرة تعاف الشرك بشدة. لا شك أنه ﷺ قد اطلع على أحكام الله تعالى وتفاصيل الشرع من خلال الوحي من عند الله تعالى، ولكن فيما يتعلق بحب التوحيد وكرهية الشرك بشدة فكانا مغروسين في فطرته ﷺ من أول يوم. كان يعلم أن الله تعالى واحد، ويجب أن يكون واحداً، ولكنه كان لا يعلم السبيل للوصول إليه ولمعرفته ﷺ. وبحثاً عن ذلك السبيل كان يذهب إلى غار حراء ليعبده ﷺ هناك.



وفيما هو في عبادة الله تعالى ذات يوم ظهر له ملاك وقال له: "اقرأ". فقال ﷺ: "ما أنا بقارئ". فضمه الملاك إلى صدر بقوة ثم تركه وقال: "اقرأ"، فقال ﷺ: "ما أنا بقارئ". فغطه الملاك ثانية بقوة أكثر وقال: "اقرأ". فقال ﷺ: "ما أنا بقارئ". فضمه الملاك ضمة شديدة جداً، وقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (البخاري، باب كيف كان بدء الوحي).

هذه الآيات هي أول ما نزل على النبي ﷺ من الوحي في غار حراء. ومن الملاحظ هنا أن الله تعالى لم يقل لرسوله ﷺ إنه سيهب له العلوم التي قد نسيها الناس، بل قال إنه سيهب له ما لم يعلمه أحد من قبل. ذلك لأنه لو قال له سأعلمك ما نسيه الناس لكان معنى ذلك أنه سيعطيه ذلك العلم والهدى الذي سبق أن وهبه لإبراهيم أو لنوح أو لموسى أو لعيسى وغيرهم من الأنبياء، ولكن الناس قد نسوه الآن. بل قال الله تعالى لنبينا ﷺ ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.. أي سأعطيك العلوم التي لم أعطاها آدم ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء والرسول. فالواقع أن الله تعالى قد أخبره في أول وحي له أنه سيجعله "خاتم النبيين"، وأنه سيمنحه التعليم الذي لم يعطه أحداً من النبيين من قبل. وهذا يعني أن الوحي الأول نفسه قد أشار إلى الحقيقة التي ينطوي عليها لفظ ﴿طه﴾، حيث بين الله تعالى أن محمداً ﷺ متحللٌ بالقوى الروحانية الكاملة، ولذلك سيعطى تعليماً كاملاً غير خاضع للتبديل والتغيير.

ثم بعد ذلك بدأت مرحلة جديدة أكدت أنه ﷺ كان "طه" في الحقيقة، وأنه كان بالفعل متحللاً بجميع الكفاءات والصفات التي يجب توافرها في الإنسان الكامل. قال الله تعالى له ﴿اقرأ﴾.. أي اذهب وبلغ رسالتي إلى الدنيا. ولم تكن هذه بمهمة سهلة. فلقد رأيت أن الله تعالى لما أمر موسى ﷺ بأن يذهب إلى فرعون ويبلغه رسالة الله تعالى قال موسى خائفاً ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ (طه: ٣٠).. أي رب إنه عبء ثقيل ولن أستطيع حمله وحدي، فاجعل مساعداً لي من أهلي. ولكن النبي ﷺ لم يقل هذا، بل إن الله تعالى لما أمره أن يذهب ويبلغ رسالته

إلى الدنيا، تحمّل هذا العبء بمفرده، وخرج لتبليغ رسالة الله تعالى. فلما أتى بيته حكى لزوجته خديجة - رضي الله عنها - كل ما جرى له، ثم قال لها "قد خشيتُ على نفسي" (البخاري، كتاب بدء الوحي).. أي لقد عهد الله إلي مسؤولية كبيرة جدًّا، ولا أدري هل سأستطيع القيام بها أم لا؟ وكانت خديجة رضي الله عنها قد شهدت حياته المباركة بأمر عينها فقالت من فورها: "كلا، والله لا يُخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرّحمَ وتحمل الكُلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (المرجع السابق).. أي أنك تعامل الأقارب بالحسنى، وتسعى دائماً لحمل أعباء الآخرين، وتحاول إحياء الأخلاق الفاضلة التي قد اندثرت من الدنيا، وتكرم الضيف، وتعين الأبرياء في مشاكلهم التي يقعون فيها من غير جريمة؛ فكيف يمكن إذاً أن يخذل الله تعالى شخصاً يتصف بهذه الصفات الرائعة؟

إن أكبر شاهد على أخلاق الإنسان وسيرته في الدنيا هو زوجته التي تشاهد أحواله بكرة وعشياً. لذا فإن هذه الشهادة لأقوى الشهادات. وهي تؤكد أن الرسول ﷺ كان بالفعل ﴿طه﴾.. أي رجلاً تجلّت فيه جميع الفضائل والمحسن التي يجب توافرها في الإنسان الكامل أكمل تجلُّ وأروع. فإننا حين نمنع النظر في وقائع حياته ﷺ بالتفصيل نعلم أن الله تعالى قد أودعه قبل ولادته جميع المحاسن التي يجب توافرها في رجل كامل القوى، ليكون ﷺ أسوة حسنة للناس بجميع أصنافهم وشرائعهم. نحن لا ننكر أن المسيح ﷺ كان نبياً عظيماً، ولكنه لم يكن نموذجاً للناس في كل زمن ومن كل صنف. فمثلاً لا دليل في الإنجيل على زواج المسيح ﷺ، فلا يمكن إذاً أن يكون أسوة للمتزوجين. كما أنه لم يصبح حاكماً حتى يقول الملوك والحكام اليوم أنه أسوة لنا نحن الملوك أيضاً. أما محمد رسول الله ﷺ فقد مر بكل أنواع الظروف والأحوال، وبالتالي كان أسوة منقطعة النظير للناس من كل الطبقات والشرائح أجمعين.

ثم إنه ﷺ تحلّى في جميع مراحل حياته بأروع خلق وأطيب سيرة، مما كان دليلاً ساطعاً على أنه قد أودع القوى الروحانية على وجه التمام والكمال. وعلى سبيل المثال، توفي والده ﷺ قبل ولادته، كما انتقلت أمه ﷺ إلى بارئها وهو صغير جدًّا.

ولكنه ﷺ كان مثلاً رائعاً في دماثة الأخلاق حين كان عند جده الذي تولى كفالته مكان أبيه. إن أمر الطفل اليتيم لا يخلو من أحد الحالين: فإما أن تفسد أخلاقه نتيجة التدليل المفرط، أو تموت مواهبه نتيجة الإهمال. فلو كان اليتيم عند قوم يدلونه في كل حين شفقة عليه لفسدت أخلاقه كلية، أما إذا كان في بيت لا يعامله أهله كما يعاملون أولادهم لفقد الهمة والعزيمة. ولكن النبي ﷺ كان رائع السيرة منذ طفولته. فقد شهد أقرانه وزملاؤه أنه لم يكن قليل الصبر عند الأكل والشرب كالصغار، بل كان يظل جالساً في مكانه بهدوء ووقار حتى تدعوه عمته وتعطيه نصيبه من الأكل، فكان يتناوله أيضاً بوقار. تشهد أمه من الرضاعة أنه ﷺ كان وقوراً ومؤدباً حتى كان الصبيان يستغربون منه. ويقول إخوته من الرضاعة إنه ﷺ يتجنب اللغو من الألعاب. كان ﷺ يحب المزاح، ولكنه يكره الكذب وقول الزور كراهة شديدة. كان ﷺ شديد المواساة بالناس في تلك السن الصغيرة أيضاً حتى إن الصغار كانوا يعدونه رئيساً لهم (تاريخ الخميس، الجزء الأول ص ٢٢٥).

ثم إنه كان باراً بعمه أبي طالب وعمته بحيث لا نجد نظيراً لمثل ذلك البرّ عند الأولاد الحقيقيين أيضاً. لما فتح مكة سأله ﷺ الناس يا رسول الله، أين ستقيم؟ فأجاب من غير غضب: وهل ترك لنا عقيل بيتاً حتى نقيم فيه؟ وكان يعني أن أبناء عمه ﷺ قد باعوا بيته ﷺ أيضاً، فلم يبق له بيت يقيم فيه (البخاري: كتاب السير والجهاد).

ثم إن النبي ﷺ لم يحبّ عمه أبا طالب حبّ الولد والده فحسب، بل أوصى الآخرين أيضاً بالألا يقولوا لوالديهم أفّ.

وبعدها دخل النبي ﷺ في سنّ الفتوة والشباب وهو سن لا يكثر فيها الناس لما يفعلون. ولم يكن لدى العرب عندئذ أي رادع قانوني أو خلقي. فكان المرء منهم يتفاخر على المألأ بعلاقته غير المشروعة بامرأة أو فتاة. ومن المستحيل أن يتوقع من شباب ذلك المجتمع الفاسد سلوك قويم. ولكن النبي ﷺ، رغم عيشه في هذا المناخ الفاسد، قد ضرب أروع مثال للسلوك القويم حتى سماه القوم أميناً صدوقاً (السيرة النبوية لابن هشام مجلد ١: اختلاف قريش فيمن يضع الحجر). فكان بمثابة الإساءة إليه أن

يقال عنه إنه لا يكذب، إذ كان مثلاً رائعاً لا نظير له في الصدق وقول الحق. فليست ميزته ﷺ أنه لم يكذب، إنما ميزته أن كان صدوقاً، فكان كلامه منزهاً عن أي خفاء أو عوج أو خداع، ولذلك كان الناس يصدقونه دائماً فيما يقول. ذات مرة جمع ﷺ أهل مكة وخاطبهم قائلاً: هل تصدقوني لو قلت لكم إن وراء هذا التل جيشاً كبيراً يريد الهجوم عليكم؟ قالوا نعم. ما جربنا عليك إلا الصدق (البخاري: كتاب التفسير، سورة الشعراء). مع أن الأرض كانت خلاء، وكان بوسعهم أن يصعدوا جبلي الصفا والمروة وينظروا إلى المدى البعيد. فتصديقهم له، والحال هذه، يعني أنهم كانوا مستعدين لأن يكذبوا ما كانوا يرونه بأم أعينهم، إذ كانوا يرون أن لا جند هنالك، ولكنهم ما كانوا مستعدين لتكذيب قوله. فلما اعترف الجميع بصدقه قال ألا فاعلموا أن الله تعالى قد بعثني لهدايتكم وإصلاحكم.

وثمة شهادة أخرى على صدق النبي ﷺ من قبل شخص كان من أشد أعدائه. فكر أهل مكة أن محمداً (ﷺ) سيسعى لضم الناس إليه حين يحضرون مكة في موسم الحج، فاجتمعوا لتداول الرأي والتشاور لوضع خطة لتشويه سمعته بين القوم. فمنهم من قال سنشيع بين القوم إنه شاعر، ومنهم من قال سنقول إنه مجنون. حتى قال بعضهم إن الأمر سهل جداً، سنقول لهم إنه كذاب. فلم يلبث أحد هؤلاء الأعداء، وهو النضر بن الحارث، أن قال لقريش في حماس شديد: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتُم كاذب. والله إنه ليس بكاذب \* . (الشفاء للقاضي عياض، الجزء الأول ص ٥١).

ولنتحدث الآن عن أخلاقه ومساعدته للفقراء، حيث لا نجد له مثيلاً في هذا المجال أيضاً. اجتمع بعض أهل مكة وشكّلوا لجنة للدفاع عن حقوق الفقراء، وسموها "حلف الفضول" لأن معظم أعضائها الأولين كانوا يحملون اسم "فضل".

\* ورد في المصدر المشار إليه مكان العبارة التي تحتها الخط: "قلتُم ساحرٌ. والله إنه ليس بساحر". (المترجم)

فانضم النبي ﷺ إلى هذه اللجنة. وقد حدث هذا قبل بعثته بفترة طويلة. وسأله بعض صحابته فيما بعد عن هذا الحلف، فقال: إن تلك الحركة الداعية إلى الدفاع عن حقوق المظلومين والفقراء كانت محبوبة لدي لدرجة أنه لو دعاني اليوم أحد إلى مثلها للبيتُ نداءه بلا تردد. مما يعني أنه ﷺ كان جاهزاً للعمل لمساعدة الفقراء والضعفاء ولو تحت رياسة شخص آخر (السيرة الحلبية: الجزء الأول ص ١٤٣).

لما تزوج النبي ﷺ بخديجة - رضي الله عنها - لم يكن عنده أي مال. ورد في بعض الروايات أن والد النبي ﷺ ترك وراءه قليلاً من الغنم أو بضع جمال (طبقات ابن سعد: ذكر وفاة عبد الله بن عبد المطلب). ولكن هذه التركة ضئيلة جداً بحيث إن وجودها وعدمه سواء. وبما أن الله تعالى قد خلقه ﷺ مزوداً بالقوى الكاملة، وكان ﷺ ﴿طه﴾ حقاً، فما كان عنده طمع ولا جشع، بل كان غني النفس إلى أقصى درجة، حتى لقبه قومه "الأمين"، معترفين بأمانته وسداده.

ذات مرة جاءتة ﷺ أموال الصدقة، فسقط دينار منها في بعض زوايا بيته عند التقسيم، فنسي أن يحمله. ثم تذكره بعد فراغه من الصلاة. فخرج إلى بيته مسرعاً يتخطى رقاب الناس. فقال له الصحابة يا رسول الله، ما الذي حدث؟ قال ﷺ: نسيت ديناراً من الصدقة في البيت، فأردت أن أوزعه أيضاً بأسرع ما يمكن (البخاري: كتاب الزكاة، باب من أحبَّ تعجيل الصدقة). فرغم كثرة المال والثراء أبدى استغناء عن المال بشكل محير. فكلما أتاه مال وزعه في سبيل الله تعالى، وذلك بالرغم أن عائشة رضي الله عنها تقول: أحياناً ما كانت النار توقد تحت القدر في بيوت النبي ﷺ طوال شهر، وإنما كنا نعيش على شيء من الحليب أو التمر، أو أحياناً كان بعض الجيران يبعثون لنا من طعامهم، أو يتنا جوعاً في بعض الأحيان. (شمائل الترمذي، باب ما جاء في عيش النبي ﷺ). وكان قد حدث هذا في زمن كثرت فيه الأموال.

قصارى القول إن النبي ﷺ قد قدم نموذجاً رائعاً في كل ظرف وحال. لقد جاءتة الأموال بكثرة، فأثر الفقر على الرخاء. وقد قضى شبابه في عفاف وورع مدهشين. فقد تزوج في سن الخامسة والعشرين، في حين أن الولد في تلك المنطقة

والمناخ يصل سن البلوغ وهو في السادسة أو السابعة عشرة من عمره. ثم إنه ﷺ تزوج أرملة كانت أكبر منه سنًا؟ ثم بعد الزواج لما وضعت خديجة رضي الله عنها في يده ﷺ كل ما تملك ما لبث أن أعتق العبيد كلهم.

وكان النبي ﷺ مثلاً أعلى في تحمل أذى الأعداء. لما ذهب إلى الطائف لدعوة أهلها رشقوه بالأحجار حتى جرح من قمة رأسه إلى أخص قدميه. فجاءه الملاك من عند الله تعالى يقول له لو شئت لعاقبتهم حالاً. ولكنه ﷺ أجاب: كلا، إنما فعلوه بجهالة (البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين).

ثم إن هؤلاء الأعداء الذين كانوا لا يألون جهداً في إيذائه، كلما كانوا في حاجة بادر النبي ﷺ إلى إسعافهم. لم يحدث قط أن أحداً منهم أتاه ﷺ بحاجة فرفض أن يسد حاجته. إن البلدة التي فر منها النبي ﷺ مخفياً تحت ستر الليل لما عرض عليه أهلها مغلوبين، وكانوا من ألد أعدائه، عفا عنهم وقال "لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء" (زاد المعاد: الجزء الثاني ص ١٦٥، دخول النبي ﷺ والمسلمين مكة). وذلك بالرغم أن منهم من قد قتلوا أصحاباً له ﷺ شرقتل حيث شقوهم قطعتين بربط إحدى رجلي الرجل ببعير والأخرى ببعير آخر، ثم ساقوا البعيرين في جهتين مختلفتين. ومنهم من طعنوا المسلمات في فروجهن بالحربة وقتلوهن. ومنهم من أذاقوا أصحابه ﷺ أشد العذاب حيث ألقوهم في الشمس على الرمال المحرقة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت (الاستيعاب في معرفة الأصحاب، باب السين: سمية بن أم عمار، وأسد الغابة: حرف الباء، بلال). ومع ذلك قد عفا النبي ﷺ عنهم جميعاً، وهذا قدم برهاناً ساطعاً على صبره المنقطع النظير.

لقد مارس النبي ﷺ التجارة أيضاً ومارسها بشكل مدهش. يقول عبدُ الخديجة - رضي الله عنها - إنه لم ير شخصاً أميناً مثله ﷺ. فلو كان في سلعته ﷺ عيب ذكره بنفسه للمشتري، فكان الزبائن يبحثون عنه ويشترون منه، فكان أكثر الناس رجلاً.

كان ﷺ يحسن إلى الفقراء إحساناً عجباً. مرة جاء شخص ووضع رداءه في عنق النبي ﷺ وجذبته جذباً شديداً، وجعل يقول: أعطني بعض المال؟ فما غضب ﷺ عليه، وإنما اكتفى بقوله: لو كان عندي مال لآتيتك. لقد كان مع النبي ﷺ عندئذ

عشرة آلاف من أصحابه الذين بايعوه على أن يفدوه بأموالهم وأنفسهم، لو أنه أشار إليهم لضربوا عنق هذا الشخص في لمح البصر. ولكنه ﷺ لم يغضب عليه (كتاب الشفاء للقاضي عياض، الجزء الأول ص ٤١).

أما شجاعة النبي ﷺ فحدّث عنها ولا حرج. لما بلغت المعارضة في مكة منتهاها جاء رؤساء قريش أبا طالب يهددونه أنه إذا لم يمنح محمداً (ﷺ) من الدعوة سيفصلونه عن السيادة. فخاف أبو طالب من تهديدهم. ولما رجع النبي ﷺ إلى البيت قال له أبو طالب، يا محمد إن رؤساء مكة قد قالوا لي كيت وكيت. فهلا اتخذت موقفاً ألين لاسترضائهم؟ فرد النبي ﷺ وقال: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أمتنع عن دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى، فلن أستجيب لطلبهم أبداً. سأمضي قدماً في هذا المضمار ولو كلفني ذلك إراقة آخر قطرة من دمي (السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول ص ٢٨٤-٢٨٥).

وبالاختصار، كان النبي ﷺ متصفاً بجميع الصفات الحميدة التي يجب توفرها في إنسان كامل القوى، على أحسن وجه وأروع شكل. فكان متحلّياً بالشجاعة، والسخاء، والإحسان، والوفاء، والأناة، والرحمة، والإيثار، والأمانة، والأخوة، والتواضع، والغيرة، والشكر، والمثابرة، والوقار، والنصح للناس، وعلوّ الهمة، والصبر، والرأفة، ومقاومة السيئة، وقوة الاحتمال، والجدّ والاجتهاد، والبساطة، وصلة الرحم، والصدق، وإعانة الفقراء، ومساعدة المنكوبين، والضيافة، واحترام الكبار، والشفقة على الصغار، وحب الله تعالى، والتوكل، والحفاظ على العبادة. فأى ميزة لم توجد فيه ﷺ، وأي كمال لم يتوفر فيه ﷺ؟ هذه هي الحكمة في ورود هذه السورة بعد سورة مريم، حيث أشار الله تعالى بأسلوب لطيف إلى أن مريم لما حملت بعمسى ﷺ جاءها الملاك بهذه البشارة على صورة بشر سوي كما قال الله تعالى ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٨).. أما النبي ﷺ فلم يظهر ملاك على صورة بشر سوي للتبشير بولادته، وإنما كان النبي ﷺ بنفسه رجلاً كامل القوى تجلت فيه كل صفات الرجولة بأهمي وأكمل صورة. وكان عيسى ﷺ قد نال نصيبه من هذه القوى بشكل غير مباشر وبصورة ناقصة أيضاً؛ ذلك لأن الملاك

الذي بشر أمه بولادته ظهر لها بشرًا لا رجلاً، ومن المعلوم أن لفظ "البشر" إشارة إلى فترة ما قبل التمدن الإنساني.. أي أن البشر هو مرحلة أولى من تطور الإنسان، وأما "الرجل" فهو آخر مرحلة من تطور الإنسان. فثبت أن محمداً رسول الله ﷺ كان مظهرًا للقوى الإنسانية الكاملة، أما عيسى ﷺ، فكان مظهرًا للقوى البشرية فقط، وذلك بحسب سورة مريم والإنجيل كليهما. ولذلك لما نزل جبريل على المسيح ظهر له على صورة حمامة كما يقول الإنجيل (متى ٣: ١٦)، والحمامة طائر ضعيف نحيف يفتك به القط أيضاً. أما نبينا ﷺ فنزل عليه جبريل نفسه، وظهر له على صورة رجل ضخم قويٍّ ضمَّ نبينا ﷺ إلى صدره بكل قوة. يقول النبي ﷺ وهو يحكي ما جرى له في غار حراء: جاءني الملاك وقلت له: ما أنا بقارئ، "فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ" (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي). وقد ظهر للنبي ﷺ الملاك على صورة رجل قوي ضخم لأنه ﷺ كان مظهرًا للقوى الإنسانية الكاملة. وهذه هي الخصوصية التي قد أوما الله تعالى إليها بقوله ﴿طه﴾.

## مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ

### شرح الكلمات:

لِتَشْقَىٰ: شَقِيَ الرجلُ شَقَاوَةً: كان شَقِيًّا (الأقرب).

يقول الإمام الراغب: الشقاوة خلاف السعادة. وقال بعضهم: قد يوضع الشقاء موضع التعب (المفردات).

وأما السعادة فيقول الراغب: السعادة: معاونَةُ الأمورِ الإلهية للإنسان على نيل الخير. (المرجع السابق)

فقوله تعالى ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ يعني: ١- أننا ما أنزلنا عليك القرآن ليلحقك تعب أو عناء. ٢- أننا ما أنزلنا عليك القرآن لتُحرم من المدد السماوي بما خلق الله من أسباب في سبيل تحقيق غايتك.



**التفسير:** هذه الآية جاءت تأكيداً لما قال الله تعالى من قبل في سورة مريم إبطالاً لزعم المسيحيين أن الشرع لعنة حيث قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ (مريم الآية: ٩٨). فقد بين الله تعالى الآن أننا لم ننزل القرآن عليك لتقع في التعب والمشقة، وإنما أنزلناه تذكيراً بواجباتك. ومن الواضح أن الشرع الذي يذكر الإنسان بمسؤولياته لا يمكن أن يُعتبر لعنة، إنما مثله كمثل الصديق الحميم الذي يدل صاحبه على الطريق السليم. فقلوه تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ إعلان رباني بأن كل ما ورد في القرآن الكريم من تعليم وهدى إنما هو رحمة وبركة للإنسان. فليس في تعليمه ﷺ ما هو خلاف فطرة الإنسان، ويلقيه في المشقة والأذى.

كما أن هذه الآية تشير إلى معنى آخر، وهو أنك يا محمد، ما دمت رجلاً كاملاً القوى قادراً على أداء ما ألقينا عليك من فرائض وواجبات، وما دمت تؤديها بالفعل على ما يرام، فكيف يمكن أن تهلكك؛ إذ لا أحد يدمر بيده متاعه الثمين. إذا فلم ننزل عليك القرآن لكي تهلك، وإنما لنذكرك وقومك بواجباتكم ومسؤولياتكم حتى تنجوا جميعاً من الضلال.

## إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ تَخَشَىٰ

شرح الكلمات:

يخشى: خشيه: خافه (الأقرب).

وورد في "المفردات": الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه.

**التفسير:** أي أن هذا القرآن لا يولد، كالأسفار الأخرى، خشية الله في قلب الإنسان فقط، بل يرقى به أعلى وأعلى ويوصله بالله تعالى.. أي يجعله من أوليائه ﷺ. وقد أكد الله تعالى هذا المفهوم في بداية القرآن الكريم أيضاً فقال ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٣).. أي أن القرآن يزيد المتقين أيضاً هدىً ويجعلهم من الواصلين

بالله تعالى. ومن البديهي أن المقربين لدى الله تعالى لا يخشونه فقط، بل يرجون منه الجوائز وتلتاع قلوبهم بجذوة حبه تعالى. وهذا هو المقام السامي الذي لا يعرضه على السالك أي كتاب سوى القرآن الكريم.

## تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٥٠﴾

### شرح الكلمات:

**تنزيلًا:** مصدر نزل، وهو منصوب لوجود محذوف قبله، والتقدير: أنزلناه تنزيلًا.

**العلَى:** العلى جمع العُلَيَا التي هي مؤنث الأعلى (المفردات).

**التفسير:** لقد نبه الله تعالى هنا إلى أن الذي خلق المادة وجعل منها العالم المادي في درجات تخرج عن حد الإحصاء، حتى إن الدرجات العلى منه أسمى من أن تدرك ولا تُرى، كذلك فإنه تعالى حين يخلق العالم الروحاني يخلقه على هذا الغرار نفسه، فيجعل فيه أيضًا مقامات عُلَى تستحق أن تسمى السماوات الروحانية؛ وستظل تلك السماء الروحانية تسدي إلى الإنسانية خدمات روحانية شأن السماء المادية، فلا يبرح الناس يرتقون في الدرجات العلى بفضل تلك السماء الروحانية. وقد أشار إلى هذا المعنى أحد خدام المصطفى ﷺ حضرة معين الدين الجشتي - رحمه الله تعالى - حيث قال في بيت شعر له بالفارسية:

دمبدم مروح القدس اندر معيني مي دمد من نمي كويم مكر من عيسى ثاني شدم

أي: أن جبريل يهمس دائماً في أذن معين الدين، فرغم أنني لا أقول ذلك بلساني، ولكن الأمر الواقع أنني قد أصبحت مثيلاً لعيسى ﷺ.

لقد صنع عيسى ﷺ القساوسة والباباوات الذين فيهم عيوب شتى، أما محمد رسول الله ﷺ فقد صنع شخصيات عظيمة مثل حضرة معين الدين الجشتي رحمه الله تعالى.. أي أنه خلق الكثيرين الذين كانوا كعيسى ﷺ.

وكذلك يقول خادم آخر للمصطفى ﷺ، أعني مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، في بيت شعر له بالفارسية:

ألا مے متكر انرشان محمد      هم انر نومر نمايان محمد  
كرامت گر چه بے نام و نشان است      بيا بنگر نر غلمان محمد

(آئينة کمالات إسلام ص ٦٤٩)

أي يا مَنْ تُنكر عظمة محمد ﷺ وأنواره الساطعة، اسمع بأذن واعية أن الكرامات وإن صارت عديمة الوجود في الأديان الأخرى في الزمن الحاضر، ولكن تعال وشاهدْها عند خدام محمد ﷺ.

### الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

العرش: العرش: سريرُ الملك؛ العزُّ؛ قوأمُ الأمر، الملك. والعرشُ من البيت: سقفه (الأقرب).

وقال صاحب المفردات: سُمِّيَ مجلسُ السلطان عرشًا اعتبارًا بعلوه؛ وكُنِيَ به عن العزِّ والسلطان والمملكة. وقوله ﴿ذو العرش﴾ وما يجري مجراه، قيل: هو إشارة إلى مملكته وسلطانه، لا إلى مقرِّ له، يتعالى عن ذلك. (انظر المفردات).. أي أن ما ورد في القرآن بأن الله تعالى ﴿ذو العرش﴾ وما شابه ذلك من التعابير، إنما يعني الإشارة إلى ملكوت الله وغلبته فحسب، وليس أن الله تعالى عرشًا ماديًا يستقر عليه في مكان معين؛ لأن العرش المادي يستلزم التجسد، والله تعالى أسمى من التجسد. استوى: استوى الرجلُ: انتهى شبابه وبلغ أشدَّه أو أربعين سنة واستقام أمره. ويقال "استوى على سرير الملك" كنايةً عن التملك وإن لم يجلس عليه. واستوى عليه: استولى وظهر (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن وحيه إنما ينزل وفق صفته الرحمن، بمعنى أن الله تعالى يرى ضعف العباد وقلة حيلتهم فتثور رحمته من تلقائها لهدايتهم.

إن هذه الآية تردّ على المسيحية، ذلك لأن أساس المسيحية الكفارة، والكفارة والرحمانية ضدّان لا يجتمعان؛ ذلك لأن الكفارة إنما تصح إذا لم يكن الله تعالى بقادر على أن يرحم أحداً من غير عمل منه. ولكن الرحمن يعني من يرحم العباد من غير عمل سبق منهم. ولذلك تجدد المسلمون يكتبون في مستهل كتبهم "بسم الله الرحمن الرحيم"، أما الكتاب المسيحيون فإما أنهم لا يبدؤون كتبهم بأي جملة كهذه، أو يختار كل واحد منهم ما يحلو له من الجمل. فمنهم من يكتب: "بسم الأب والابن والروح" (ستم هامان، منظومة منشي كيدار ناغم). ومنهم من يقول: "بسم الله الهادي الجواد" (شهادة القرآن). ومنهم من يكتب "بسم الله الهادي لا شريك له" (بمت بيش قيمت عطر كي شيشي، بادري تسدل).

وهذا يعني أنهم يستعملون في كتاباتهم كلمات شتى ويتجنبون استعمال لفظ "الرحمن". ذلك لأن لفظ الرحمن خلاف لديانتهم. ولكن كل ذرة من الكون تقول بلسان حالها إن الله رحمن. فما إن يولد الطفل إلا ويدرّ الله تعالى اللبن في ثدي أمه، والبديهي أنه لا يُعطى هذه النعمة نظير أي عمل حسن. وهذا الطفل يبلغ سن الفتوة بعد سنين طويلة، ولكن الثوب والسكن يكونان ميسرين له حال ولادته لحمايته من الحر والبرد. فثبت أن كل ذرة من الكون دليل على رحمانية الله تعالى. ثم إن كل دين في حد ذاته يشكل برهاناً على رحمانية الله تعالى. ذلك لأن كلام الله تعالى لا ينزل جزاءً على عمل من العباد، وإنما إحساناً ومنة منه ﷻ. ولذلك حيثما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم موضوع نزوله قال إن الله الرحمن هو الذي أنزل القرآن. وقال الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ أيضاً ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ (الشورى: ٥٣).. أي لم ينزل عليك القرآن نتيجة إيمانك بكتاب ولا عملك به، إذ لم تكن تعلم ما الكتاب وما الإيمان، وإنما نزل عليك نظير جذوة حب لله تعالى كانت مشتعلة في قلبك في السر كمثل التي تشتعل في الخفاء في قلب الولد من أجل والدته.

أما العرش فليكن معلوماً أنه ليس شيئاً مادياً، وإنما المراد منه النقطة المركزية للصفات الإلهية التنزلية، وكأن الصفات الإلهية التي تتعلق بالعباد يتجلى الله تعالى

بها من على عرشه، شأن الملك الذي يصدر أوامره للرعايا من على سرير مُلكه. (انظر البحث المفصل عن العرش في تفسير يونس الآية ٤ ﴿ثم استوى على العرش﴾). فبما أن وحي الله تعالى يحتوي على أحكام شتى، لذا قال الله تعالى هنا ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.. وكأنه يقول: لا شك أن هذا القرآن قد نزل وفق صفة الله الرحمن.. أي لم ينزل نظير أي خدمة من البشر، وإنما رحمة الله التي لا حد لها هي التي استدعت نزوله هداية لهم؛ ولكن يجب أن لا ينخدع أحد من رحمانية الله تعالى فيظن أن رفض وحيه أمر هين. كلا، بل عليك أن تتذكر أن الله الرحمن قد أصدر هذه الأوامر من على عرشه، ورفض أوامره يماثل إنكار مُلكه، مما يجعلك مستوجباً للعقاب.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

الثرى: الثرى: الترابُ النديُّ؛ الأرضُ (الأقرب).

التفسير: هنا شرح الله تعالى استواءه على العرش، موضحاً أن ملوك الدنيا الذين يجلسون على عروشهم يكون مُلكهم محدوداً، ولكن مُلك الله تعالى محيط بالسموات وبالأرض حتى بطبقاتها السفلى. فمن يرفض أوامره ﷻ يجعل كل المخلوقات الموجودة ما بين قمة السماء إلى أسافل الأرض أعداء له. كما أشار الله تعالى بذلك أن الذين يعملون بتعليمه يسخر الله في تأييدهم كل ما هو في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت طبقات الأرض.

وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

إن تجهراً: جهر بالقول: رفع به صوته (الأقرب).

**التفسير:** في هذه الآية شرح للآية السابقة. ذلك لأن الذي يملك أعالي الكون يستطيع أن يسمع الأصوات العالية، والذي يملك أسافل الأرض يستطيع أن يسمع الأصوات الخافتة أيضاً؛ وإلا كيف يمكنه أن يحكم تلك الأماكن.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١٠٠﴾

#### شرح الكلمات:

**الأسماء:** هو جمع الاسم. قال العلامة أبو البقاء في الكليات: الاسم ذات الشيء؛ والاسم أيضاً الصفة (الأقرب).

**الحسنى:** مؤنث الأحسن. وورد في "المفردات": "الحسن عبارة عن كل مُبْهَج مرغوب فيه." ويضيف صاحب "المفردات" ويقول: "والحُسن أكثرُ ما يقال في تعارفِ العامةِ في المستحسنِ بالبصر، وأكثرُ ما جاء في القرآن من الحُسن فللمستحسنِ من جهة البصيرة."

**التفسير:** أي ما دام الله تعالى هو المالك للسموات وللأرض حتى أسافلها، فمن المستحيل أن يكون هناك إله آخر؛ إذ ما هو المكان الذي يملكه هذا الإله المزعوم.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠١﴾

#### شرح الكلمات:

**حديث:** الحديث: الخبر، يأتي على القليل والكثير (الأقرب).

**التفسير:** كان موسى عليه السلام نبياً ذا شرع جديد مثل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الله تعالى قصته هنا ليبين أنه تعالى قد حكم الأرض من على عرشه من خلال موسى أيضاً، فأنزل عليه أيضاً وحيه.

إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا  
بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى ﴿١١﴾

### شرح الكلمات:

**امْكُثُوا:** أمرٌ من مكث يمكث بالمكان: لبث وأقام (الأقرب). وورد في "المفردات": "المكث: ثباتٌ مع انتظار." فالمراد من قول موسى لأهله ﴿امْكُثُوا﴾ أي توقفوا وانتظروا.

**آنستُ:** آنس الشيء: أبصره (الأقرب).

**قبس:** القبس: شعلة نار تؤخذ من معظم النار (الأقرب).

**التفسير:** اعلم أن ﴿ناراً﴾ هنا تعني مشهداً روحانياً من الكشف، وليس النار المادية. ذلك لأن الذي يرى النار المادية لا يقول "إني رأيت ناراً"، وإنما يقول "إني رأيت النار". فلو كان موسى عليه السلام قد رأى النار المادية لقال "إني رأيت النار"، ولكنه يقول هنا ﴿ناراً﴾، أي ناراً ما. وفي هذا إشارة أنه كان مشهداً روحانياً، وأن موسى عليه السلام أيضاً لم يفهمها النار المادية المشتعلة من خشب وفحم.

أما قوله ﴿لعلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى﴾.. فهو إشارة إلى أن التجليات الروحانية نوعان: نوع لا يخص الرائي فقط، بل يخص قومه وأصحابه أيضاً، مثل تجلي النبوة أو نزول الشرع. ونوع آخر منها يخص الرائي فحسب، مثل تجلي الولاية. فإن موسى عليه السلام لما رأى ذلك المشهد الروحاني وهو عائد من مدين إلى مصر قال لأهله إني أشعر أن الله تعالى يريد أن يريني تجلياً من تجلياته. فإذا كان تجلي النبوة والشرع وأمرت أن أعلم الآخرين أيضاً مما علمت، فسأتيكم منها بقبس.. أي سأتي بتعليم وهداية لأهلي وقومي؛ وأما إذا كان تجلي الولاية أي خاصاً بي فقط فسأنال به هدياً لنفسي على الأقل، وأنتفع به ثم أعود إليكم.

من هنا أخذ الله تعالى يسرد بعض وقائع موسى عليه السلام، حيث أخبر أولاً كيف شرفه الله تعالى بوحيه وكلامه في أول أمره. لقد وُلد موسى عليه السلام في مصر وقضى هناك أوائل عمره. ثم اضطر لبعض الأسباب للهجرة إلى مدين حيث أقام عشر

سنوات وتزوج. ثم خرج مع أهله عائداً إلى مصر، حيث تجلّى الله تعالى له على صورة نار.

لقد ورد هذا الحدث في العهد القديم أيضاً، بيد أن هناك اختلافاً بين بيان القرآن الكريم وبيان العهد القديم في بعض التفاصيل، ولا بد من أخذ هذا الاختلاف في الحسبان.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم يخبرنا أن وحي الله تعالى نزل على موسى وهو راجع من مدين إلى مصر، ولكن العهد القديم يخبر أن واقعة الوحي قد حصلت من قبل، ثم بعدها خرج موسى عائداً مع أهله وأولاده إلى مصر. حيث ورد: "وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نارٍ من وسط عُليقة" (الخروج ٣: ١-٢).

ثم ورد بعد ذلك: "فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه، وقال له: أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر، لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى: اذهب بسلام. وقال الرب لموسى في مديان: اذهب ارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك. فأخذ موسى امرأته وبنيه، وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر" (الخروج ٤: ١٨-٢٠).

وهذا يعني أن العهد القديم يخبرنا أن موسى عليه السلام حين كان بمدين، خرج إلى جبل حوريب وهو يرعى الغنم، وهناك رأى التجلي الإلهي في أكمة. ثم رجع إلى حميه واستأذنه للعودة إلى مصر، فخرج بأهله وأولاده إلى مصر. ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن واقعة التجلي الإلهي حصلت لموسى خلال سفره إلى مصر، حين كان أهله وأولاده أيضاً معه.

وليكن معلوماً بشأن هذا الاختلاف أن الذين درسوا الكتاب المقدس دراسة فاحصة يدركون جيداً أنه يخطئ كثيراً في ذكر الأرقام والمواقيت بحيث لا يمكن أن يصدقه أي إنسان عاقل. فمثلاً إذا كان عدد الناس في حدث ما آلافاً من حيث التاريخ، ذكره الكتاب المقدس مئات الآلاف. أو إذا كانت المسافة مئات الأميال



قال الكتاب المقدس إنها بضعة أميال مثلاً. فلا يمكن الاعتماد على بيانه بصورة حتمية يقينية. خذوا مثلاً هذا الحدث نفسه. فإن جبل حوريب الذي قيل أن الله تعالى تجلّى على موسى عنده وهو يرعى الغنم، واقع في صحراء سيناء التي تبعد عن مدين بمئات الأميال (انظر قاموس الكتاب مجلد ٤ ص ٣٤١). ولكن الكتاب المقدس يذكر الحدث وكأن المسافة بين المكان الذي أخذ موسى غنمه إليه، والذي نزل فيه كلام الله عليه، وبين مدين هي ميل أو نصف الميل فقط؛ ثم رجع بعد ذلك إلى حميه، وسافر بعد إذنه إلى مصر مع أهله وأولاده. مع أنه خلاف للعقل تماماً أن يخرج أحد إلى مئات الأميال يرعى الغنم، ثم يرجع إلى بيته في مساء اليوم نفسه....

فثبت أن بيان الكتاب المقدس مخالف للعقل تماماً، وأن ما يقوله القرآن هو المتفق مع العقل والمنطق. كما أن بيان الكتاب المقدس يتنافى مع الجغرافيا أيضاً، في حين أن بيان القرآن الكريم مطابق للجغرافيا أيضاً. ذلك أنه ما دامت المسافة بين مدين وحوريب تبلغ مئات الأميال، فمن غير المعقول القول أن موسى عليه السلام ذهب يرعى الغنم إلى حوريب.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أنه لم يرد في هذا المشهد المذكور في الكتاب المقدس أي ذكر لزوجة موسى وأولاده. فلو أن موسى أمر هنا بأن يأخذ معه أهله وأولاده لقلنا إن موسى تكبد سفر مئات الأميال مرة أخرى عملاً بأمر الله تعالى؛ ولكن لا نجد في الكتاب المقدس أي إشارة بأن الله تعالى أمر موسى بالعودة إلى مدين وأن يأخذ معه أهله وأولاده أيضاً. إذاً فليس هناك في عودته إلى مدين بعد هذا المشهد أي سبب معقول. ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن أهله وأولاده كانوا معه وقت المشهد، إذ كان قد خرج في سفر مسافته مئات الأميال، وليس هناك داع لأن يخرج في هذا السفر الطويل تاركاً أهله في مدين. فثبت أن بيان القرآن يتفق مع العقل والجغرافيا أيضاً، ولكن بيان الكتاب المقدس لا يمكن أن يُعدّ معقولاً.

### فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٢﴾

**التفسير:** أي لما اقترب موسى عليه السلام من ذلك الشيء الذي كان ناراً في الظاهر تلقى وحياً يقول: ﴿يَمْوَسَىٰ إني أنا ربك﴾. ولا يعني ذلك أن تلك النار كانت رباً لموسى، وإنما المراد أن الذي أظهر ذلك التجلي هو رب موسى؛ ذلك لأن النار لا تتكلم، بل إن الله تعالى هو الذي يتكلم.

### إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٣﴾

#### شرح الكلمات:

**طُوًى:** من طوى الصحيفة يطويها: نقيض نشرها (الأقرب). والطوى: الشيء المثنى (تاج العروس).

وورد في "المفردات" عن "طوى": "قيل هو اسم الوادي الذي حصل فيه (كلام الله مع موسى). وقيل إن ذلك جعل إشارةً إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء، فكأنه طوى عليه مسافةً لو احتاج أن ينالها في الاجتهاد لبعد عليه". .. بمعنى أن "طوى" إشارة إلى أن الله تعالى قد بوأ موسى باصطفائه له مقاماً روحانياً يصعب الوصول إليه بالمجاهدات عادة.

**التفسير:** قوله تعالى ﴿فاخلع نعليك﴾ يعني حرفياً: انزع حذاءك، ولكن المراد الحقيقي هو اقطع علاقاتك الدنيوية كلها ابتغاءً لمرضاة الله تعالى، وكُنْ له وحده كلية. ذلك أن النعل في الرؤيا أو الكشف يعني الأقارب والأصحاب كالزوجة والولد والصديق (تعطير الأنام للنابلسي). ولما كان المشهد الذي رآه موسى عليه السلام كشفاً من الكشف فأمر الله تعالى موسى بقوله ﴿اخلع نعليك﴾ أن يقطع صلواته الدنيوية كلها لوجه الله تعالى. ثم قال ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾.. أي لأنك قد دخلت الآن في واد له طرفان: فأحد طرفيه متصل بالله وطرفه الآخر متصل بالعباد، أي أن الله تعالى قد شرفك الآن بالنبوة والرسالة، ومن تبوأ هذا المقام تبطل عن الدنيا إلى الله تعالى كلية، ووجه فطرته من الماديات إلى الروحانيات. فمن واجبك الآن أن

تقطع كل صلاتك المادية وتتخلي عن كل محبة دنيوية، وتصبح لله تعالى كلية، وتقوي صلته به وَعَلَيْكَ.

وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

اخترتك: اختاره من الرجال: انتقاه واصطفاه من بينهم (الأقرب).

التفسير: هذه الآية أيضاً تبين أنه لم يتكلم من النار شيء، بل كان ذلك الكلام وحياً من الله تعالى، ذلك لأن الله تعالى يوضح هنا لموسى ويقول يا موسى لقد اخترتك، فأصغ إلى الوحي الذي نوحيه إليك.

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أَقِم: أقم الشيء: أدامه. أقم الصلاة: أدام فعلها. وأقام للصلاة: نادى لها (الأقرب).

التفسير: إن قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني: عليك أن تؤدي الصلاة بنفسك، كما يجب أن تجعل الآخرين أيضاً يصلون. وكأن المراد من إقامة الصلاة هو الصلاة بالجماعة. والحق أن الصلاة بالجماعة لا تؤدي في أي دين سوى الإسلام، وإن كان الناس يجتمعون في الظاهر للعبادة كما يجتمع النصارى في الكنائس واليهود في الصوامع.

وقوله تعالى ﴿لذكري﴾ يمكن أن يفسر بمفهومين: الأول: عليك أن تؤدي الصلاة شكراً لي لأني قد ذكرتك. والثاني: عليك أن تصلي من أجل ذكري.. أي لا تصل رياءً، بل يجب أن تكون صلاتك لذكري.

﴿١٦﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ

### شرح الكلمات:

**أُخْفِيهَا:** أُخْفِي هي صيغة المتكلم للواحد وهو إفعال من خفاه يَخْفِيهِ: أظهره، وستره، وهو من الأضداد. وأخفى الشيء: أزال خفاهه (الأقرب).  
**التفسير:** يمكن تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ بمفهومين: الأول أن ساعة العذاب آتية أكاد أسترها؛ والثاني أنها آتية أكاد أظهرها. فمن قواعد اللغة العربية سلب معنى الفعل الثلاثي المجرد بجعله من باب الإفعال، كما يقال "شكاني فأشكيتُه.. أي أزلتُ ما يشكو منه. وعليه فستعني هذه الآية، نظراً إلى معنى الستر، أن هؤلاء القوم قد بلغوا من الفساد والشر بحيث أنني سأخفي عنهم ساعة العذاب لأفاجئهم بها حتى لا يجدوا فرصة لدفع العذاب. أما بالنظر إلى مفهوم الإظهار فستعني الآية أن ساعة غلبتك وهلاك أعدائك موشكة، وكدتُ أن أظهرها.. أي أن الظروف ستتغير عن قريب فتصبح آثار هلاكهم بادية؛ والهدف من ذلك أن ينال كل واحد جزاءه بحسب عمله، فيحصل المؤمنون على جوائزهم، ويزدق الكافرون عقابهم. فالباء في قوله تعالى ﴿بِمَا تَسْعَى﴾ تعني وفق وحسب، والمراد لتنال كل نفس جزاءها بحسب ما تسعى وتعمل.

﴿١٧﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ

### شرح الكلمات:

**تَرْدَى:** رَدِي يَرْدِي: هلك (الأقرب).  
**التفسير:** أي يا موسى، لا يمنعنك عن أداء ما فرض الله عليك شخص لا يؤمن بتلك الساعة ويتبع أهواء نفسه فحسب، وإلا فسيحيطك أنت أيضاً بالبلاء. وهذه الآية أيضاً تصديق لقوله تعالى من قبل ﴿﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾﴾.. أي ما أنزلنا عليك القرآن لتهلك، حيث صرح الله تعالى لموسى أن الذي يعمل بتعليمك

لن يهلك، بل الذي يتركه هو الذي سيهلك. وتكشف لنا دراسة الكتاب المقدس أن الرسالة نفسها قد بلغها الله تعالى بني إسرائيل على لسان موسى حيث ورد: "وإن سمعت سمعاً لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياها التي أنا أوصيك بها اليوم، يجعلك الرب إلهك مستعليًا على جميع قبائل الأرض، وتأتي عليك جميع هذه البركات وتدررك إذا سمعت لصوت الرب إلهك. مباركًا تكون في المدينة، ومباركًا تكون في الحقل. ومباركةً تكون ثمرة بطنك، وثمرة أرضك، وثمرة بهائمك.. نتاج بقرك وإناث غنمك. مباركةً تكون سلتك ومعجنتك. مباركًا تكون في دخولك، و مباركًا تكون في خروجك." (التثنية ٢٨: ١-٦)

ثم ورد أيضًا: "ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياها وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم.. تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدررك. ملعونًا تكون في المدينة، وملعونًا تكون في الحقل. ملعونًا تكون سلتك ومعجنتك. ملعونًا تكون ثمرة بطنك، وثمرة أرضك.. نتاج بقرك وإناث غنمك. ملعونًا تكون في دخولك، وملعونًا تكون في خروجك" (المرجع السابق: ١٥-١٩).

وهذا يعني أن المعنى الذي قد ذكره القرآن الكريم موجود في التوراة أيضًا. وجددير بالذكر أن النبي ﷺ كان مثيلاً لموسى عليه السلام، ولذلك كما قال الله تعالى لموسى إنك إذا عملت بما في التوراة تكون مباركًا في دخولك ومباركًا في خروجك، كذلك علم تعالى نبينا ﷺ أيضًا دعاء ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨١).. أي يا رب، اجعل دخولي في مكة مباركًا، واجعل خروجي منها أيضًا مباركًا. فكأن هذه الآية أيضًا تؤكد أن النبي ﷺ كان مثيلاً لموسى عليه السلام.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٨﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا  
وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَعَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

أَتَوَكَّأُ: توكأ على العصا: تحمّل واعتمد عليها (الأقرب).

أَهْشُ: هَشَّ الورقَ: خَبَطَهُ بَعْصًا لِيَتَحَاتَّ (الأقرب).

مَآرِبُ: جمع إِرْبٍ، وإِإِرْبُ الحَاجَةُ (الأقرب).

التفسير: إن رؤية موسى للعصا كان كشفًا روحانيًا، والمراد من العصا في الحقيقة بنو إسرائيل؛ حيث تعني العصا الجماعة أيضًا كما ورد في القواميس (انظر أقرب الموارد).

ولما قال الله تعالى لموسى ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال في نفسه بطبيعة الحال: لماذا يسألني الله تعالى عن العصا، فراح يعدد منافعها وقال ﴿أتوكؤأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾.. أي أنني أعتمد على عصاي، وأخبط بها الورق لتتساقط على غنمي، ولي فيها فوائد أخرى. والمراد من اتكاء موسى على العصا أنه يثق بقومه ويستعين بهم في المهمات الدينية.

وأما قوله ﴿وأهش بها على غنمي﴾ فالمراد به الإشراف بواسطة حقوق التوابع. ذلك لأن الغنم لا تكون جزءاً من القوم، وإنما تكون كالتوابع، لذا فما دام العصا تعني القوم فسيعني الهش بالعصا على الغنم أنه يقوم من خلال قومه، برعاية حقوق التوابع ومنافعهم. والحق أن الأنبياء كلهم قد أخذوا التبرعات والصدقات من قومهم، وأعانوا بها فقراءهم وكذلك فقراء وشرفاء الأمم الأخرى كالراعي يرعى غنمه. فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالزكاة أيضاً، ومن مصارف الزكاة بحسب القرآن مساعدة ذوي الحاجة والغارمين من المسلمين، وكذلك المسافرين أيًا كان دينهم، وإعانة المؤلفلة قلوبهم وهم من أهل الأديان الأخرى يقيناً (التوبة: ٦٠). وهكذا فإن الله تعالى قد طبق كشف موسى هذا على محمد رسول الله ﷺ مئة بالمئة، حيث أوصاه أيضاً بأخذ الزكاة من قومه.. أي بهش الورق بعصاه، ولكنه أوضح له أن هذه الأوراق يجب أن لا تنفع قومك فقط، بل يجب أن تنفع الآخرين أيضاً ممن ليسوا من قومك، والذين هم في حكم الحيوانات.

### قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ﴿٢٠﴾

التفسير: المراد اترك تربية قومك لبعض الوقت، ثم انظر ماذا يكون مآل ذلك.

### فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢١﴾

التفسير: أي لما ألقى موسى عصاه تحولت إلى ثعبان يجري. وبالفعل قد شاهد موسى ﷺ في حياته أنه ما إن ترك رعاية أمته قليلاً إلا وصارت سامة كالثعبان. فمثلاً حين ذهب موسى ﷺ إلى الجبل لأيام أخذ قومه يعبدون الأصنام في غيابه. وكذلك كلما حصل نقص في رعايته لهم فسدوا.

### قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

سيرتها: السيرة: الهيئة (الأقرب).

التفسير: خاف موسى ﷺ لما رأى العصا على هيئة الثعبان، فقال الله تعالى له لا تخف، إنه قومك، فأمسكهم جيداً يعودوا إلى سيرتهم الأولى، ويكونوا ذوي نفع عظيم. أي أن قومك لن يفسدوا في حياتك فساداً أبدياً، بل كلما تقوم برعايتهم يصلحون أنفسهم.

وبالفعل ترى أن فئة من قومه قد فسدوا في غيابه وأشركوا، ولكنه لما رجع أصلحوا أنفسهم بجهوده ورعايته وتابوا عما فعلوا، فشملمهم الله تعالى برحمته وعفوه. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قبول توبتهم فقال ﴿فتاب عليكم﴾ (البقرة: ٥٥). وهذا يعني أن ابتعاد موسى عن قومه كان ضاراً بهم، ولكنه بمجرد أن تولى رعايتهم رجعوا إلى الصواب، يبذلون في سبيل الله تعالى كل غال ورخيص.

وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ أُخْرَى ﴿٦٠﴾

### شرح الكلمات:

يدك: اليد؛ الكف؛ الجماعة (الأقرب).

وورد أيضاً: "اليدُ تدلُّ على الولد والأخ والمال والزوجة والشريك والصديق" (تعطير الأنام للنايلسي).

جناحك: الجناح: العضد؛ الإبط؛ الجانب؛ نفسُ الشيء؛ الكنف، ومنه "أنا في جناح فلان" أي في ذراه وظلّه (الأقرب).

التفسير: وكما ذكرنا آنفاً، إن اليد تعني الأخ أيضاً. وإذا توسعنا في هذا المعنى فيمكن أن تعني القوم أيضاً، لأن أفراد القوم يصبحون أعواناً وأنصاراً مثل اليد. إذا فكأن الله تعالى قد نبه موسى بقوله ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ إلى أن يقرب إلى نفسه كل مَنْ يصلح من قومه لمساعدته ويسعى للتقرب إليه، فيصبحون شخصيات نورانية، وتظهر على أيديهم كمالات روحانية عظيمة.

يتضح لنا من القرآن الكريم أن موسى لما ضم يده إلى صدره بأمر الله تعالى صارت يده بيضاء نورانية تماماً، وأن هذا البياض لم يكن نتيجة مرض أبداً. الحق أنه كان مشهداً من الكشوف الروحانية له تأويل عظيم. ولكن الكتاب المقدس يقول بهذا الصدد: "فأدخل يده في عبئه، ثم أخرجها، وإذا يده برضاء مثل الثلج"\* (الخروج ٤: ٦).

مع أن صيرورة يده بيضاء بسبب مرض الجذام عذاب، في حين أن المناسبة هي ظهور التجلي الإلهي وظهور آية من الله تعالى، ولا مجال فيها أبداً لنزول العذاب على موسى. فبيان الكتاب المقدس هذا باطل بالبداهة. فكيف يمكن لموسى عليه السلام أن يزداد إيماناً إذا كان قد رأى نفسه قد أصيب بالجذام؟ كلا، بل لا بد أن يصيبه

\* قد ورد هنا في الطبعة الأردنية ما تعريبه: "فإذا هي بيضاء مثل الثلج بسبب الجذام" (المترجم).



الحزن والخوف بسبب ذلك. ولكن القرآن الكريم يصرح ﴿بيضاء من غير سوء﴾.. أي أن يده صارت بيضاء ولكن لا علاقة لهذا البياض بالجذام أبداً. لقد بينت من قبل أن هذا كان مشهداً من الكشوف الروحانية، وكان تأويله أن يضم موسى إلى نفسه ذوي الخير والنفع من قومه. وعليه فستعني جملة ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أنه حين يضمهم إلى كنفه وصحبته سيكمل صلاحهم وخيرهم، ولا يبقى فيهم نقص ولا عيب. ذلك لأن بعض الناس يريدون أهل الصلاح في ظاهرهم، ولكنهم يكونوا فاسدين جداً في باطنهم. فالله تعالى يخبر موسى ﷺ أنه حين يخصهم بقربه وصحبته يصبحون من الروحانيين الكاملين تماماً. إنما يفسدون إذا كانوا بعيدين عن صحبته وقربه.

### لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿١٣٤﴾

**التفسير:** هنا يخبر الله تعالى موسى أنه قد أراه هذه الآية ليوقن بأنه تعالى سيري على يده آيات عظيمة أخرى ينجح بها في مهمته. وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات في أماكن أخرى من القرآن الكريم فقال ﴿فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدمَّ آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ (الأعراف: ١٣٤). والمراد من قوله تعالى ﴿آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أنها كانت آيات واضحة بحيث كان بوسع كل واحد أن يشاهدها، ومع ذلك لم يرض فرعون ولا قومه بطاعة أوامرنا. ويقول الله تعالى في مكان آخر ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (النمل: ١٣).. أي أن معجزة اليد البيضاء كانت من بين تسع آيات أريناها على يد موسى من أجل فرعون وقومه، ولكنهم لم ينتفعوا منها مطلقاً. وقد تحدثت التوراة أيضاً عن هذه الآيات كالاتي.

الآية الأولى: وهي معجزة العصا، وقد وردت في التوراة كالاتي:  
 "فقال له الرب: ما هذه في يدك؟ فقال: عصا. فقال: اطرحها إلى الأرض.  
 فطرحها إلى الأرض، فصارت حية. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى: مُدَّ  
 يدك وأمسكْ بذنبها. فمدَّ يده وأمسكْ به، فصارت عصاً في يده" (الخروج ٤: ٢-٤).  
 الآية الثانية: وهي معجزة اليد البيضاء، وقد وردت في التوراة كالاتي:  
 "ثم قال له الرب أيضاً: ادخل يدك في عبك. فأدخل يده في عبه، ثم أخرجها،  
 وإذا يده برصاً مثل الثلج" (المرجع السابق: ٦).

الآية الثالثة: وهي معجزة الدم في التوراة، قد ورد عنها:  
 "ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب: رَفَعَ العصا وضرب الماء الذي في  
 النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده، فتحوَّل كل الماء الذي في النهر دمًا.  
 ومات السمك الذي في النهر وأتتْ النهرُ. فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماءً من  
 النهر" (الخروج ٧: ٢٠-٢١).

الآية الرابعة: وهي معجزة الضفادع في التوراة وذكرت فيها كالاتي:  
 "فقال الرب لموسى قُلْ لهارون: مُدَّ يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام،  
 وأصعِد الضفادعَ على أرض مصر. فمدَّ هارون يده على مياه مصر، فصعدت  
 الضفادع وغطت أرض مصر" (الخروج ٨: ٥-٦).

الآية الخامسة: وهي معجزة القمل في التوراة، وقد ورد عنها:  
 "ثم قال الرب لموسى قُلْ لهارون: مُدَّ عصاك واضربْ ترابَ الأرض ليصير  
 بعوضاً\* في جميع أرض مصر. ففعلوا كذلك: مدَّ هارون يده بعصاه وضرب تراب  
 الأرض، فصار البعوض\* على الناس وعلى البهائم. كل تراب الأرض صار  
 بعوضاً\* في جميع أرض مصر" (الخروج ٨: ١٦-١٧).

\* قد ورد هنا في الطبعة الأردنية "القمل" بدلاً من "البعوض" (المترجم).

والآية السادسة: وهي معجزة البعوض في التوراة وقد جاء ذكرها فيها كالاتي:  
 "ففعّل الرب هكذا: فدخلت ذُبَّانٌ\* كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبّيده، وفي كل أرض مصر خربت الأرضُ من الذبَّانِ" (المرجع السابق: ٢٤).

الآية السابعة: وهي معجزة هلاك المواشي بحسب التوراة، وقد ورد عنها:  
 "وعين الربُّ وقتًا قائلًا: غدًا يفعل الربُّ هذا الأمر في الأرض. ففعل الرب هذا الأمر في الغد. فماتت جميع مواشي المصريين، وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها واحد" (الخروج ٩: ٥-٦).

الآية الثامنة: وهي معجزة الدمامل، وقد ذكرتها التوراة كالاتي:  
 "ثم قال الرب لموسى وهارون: خُذَا مِلءَ أَيْدِيكُمَا من رماد الأتون، وُلَيْدِرُهُ موسى نحو السماء أمام عيني فرعون، ليصير غبارًا على كل أرض مصر؛ فيصير على الناس وعلى البهائم دماملٌ طالعةٌ يَبْثُورُ في كل أرض مصر. فأخذوا رماد الأتون ووقفوا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء، فصار دماملٌ يَبْثُورٌ طالعةٌ في الناس وفي البهائم" (المرجع السابق: ٨ - ١٠).

الآية التاسعة: وهي معجزة البرد في التوراة وجاء ذكرها كما يلي:  
 "ثم قال الرب لموسى مُدَّ يَدَكَ نحو السماء ليكون بردٌ في كل أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر. فمد موسى عصاه نحو السماء، فأعطى الربُّ رُعودًا وبردًا، وجرت نارٌ على الأرض، وأمطرَ الربُّ بردًا على أرض مصر. فكان بردٌ ونارٌ متواصلة في وسط البرد. شيءٌ عظيم جدًا لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أُمَّةً" (المرجع السابق: ٢٢ - ٢٤).

الآية العاشرة: وهي معجزة الجراد في التوراة وهي كما يلي:  
 "ثم قال الربُّ لموسى مُدَّ يَدَكَ على أرض مصر لأجل الجراد ليصعد على أرض مصر ويأكل كلَّ عشب الأرض.. كلُّ ما تركه البردُ. فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الربُّ على الأرض ريحًا شرقية كلَّ ذلك النهار وكل الليل. ولما كان

\* قد ورد هنا في الطبعة الأردنية "البعوض" عوضًا عن "الذبَّان" (المترجم).

الصباح حملت الريح الشرقية الجرادَ. فصعد الجرادُ على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر. شيء ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض. وأكل جميع عشب الأرض.. وجميع ثمر الشجر الذي تركه البردُ" (الخروج ١٠: ١٢-١٥).

الآية الحادية عشرة: وهي معجزة الظلام في التوراة وقد ذكرتها كآلآتي:

"ثم قال الرب لموسى مُدِّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يُلمَس الظلامُ. فمد موسى يده نحو السماء، فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام، لم يُبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام" (المرجع السابق: ٢١-٢٣).  
الآية الثانية عشرة: وهي معجزة موت البكر من الأولاد، وقد جاء ذكرها في التوراة كآلآتي:

"فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكرٍ في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن، وكل بكرٍ بهيمة. فقام فرعون ليلاً هو وكل عبده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت" (الخروج ١٢: ٢٩-٣٠).

الآية الثالثة عشرة: وهي معجزة عبور البحر، وقد ورد ذكرها في التوراة كما يلي:

"ومد موسى يده على البحر. فأجرى الربُّ البحرَ بريح شرقية شديدة كلَّ الليل، وجعل البحرَ يابسةً وانشقَّ الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سُورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم" (الخروج ١٤: ٢١-٢٢).

وكما ذكرنا من قبل، إن القرآن الكريم لم يذكر سوى تسع آيات، وهي:

١- معجزة العصا

٢- معجزة اليد البيضاء

٣- معجزة الطوفان

٤- معجزة الجراد

٥- معجزة القمل

٦- معجزة الضفادع

٧- معجزة الدم

٨- معجزة القحط والمجاعة، كما قال الله تعالى ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ (الأعراف: ١٣١).

٩- معجزة عبور البحر.

ويبدو أن هناك اختلافاً بين القرآن والتوراة في عدد هذه المعجزات. ولكن الواقع أن التوراة قد بلغت في تعداد عددها، إذ كل المعجزات المذكورة فيها مندرجة في تسع الآيات التي ذكرها القرآن الكريم. فمثلاً إن آية الطوفان تشمل معجزتي البرد والظلام أيضاً، ولكن التوراة تذكرهما على حدة. ثم إن القرآن ذكر آية الدم، ولكن التوراة قد قسمتها إلى معجزتين: تحوُّل ماء النهر دماً، والدمامل. مع أن تحوُّل ماء النهر دماً إنما يعني فقط أن ماءه قد فسد فساداً كبيراً، فمن شرب منه فسد دمه، فخرجت بجسمه البثور والدمامل. وبالمثل قد ذكرت التوراة آية موت البكر من الأولاد على حدة، في حين إنها مشمولة في معجزة الدم أو معجزة القمل؛ ذلك أن القمل والذباب والبعوض تسبب تفشي الأمراض التي تؤدي إلى موت الناس.

ثم إن معجزة البعوض أيضاً مشمولة في معجزة القمل، لأن القمل تعني أيضاً حشرات صغار لها أجنحة (الأقرب).  
فثبت أن بيان القرآن بصدد هذه المعجزات صحيح تماماً.

أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٦﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٧﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٨﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٩﴾

التفسير: يقول موسى عليه السلام في هذا الدعاء أولاً ﴿رب اشرح لي صدري﴾.. أي اجعل في قلبي الحماس والتفاني الشديدين للاضطلاع بهذه المهمة الصعبة. ثم يقول ﴿ويسر لي أمري﴾.. أي يسر لي عملي هذا، بمعنى أعطني من الأحكام

والتعاليم السامية التي يستعد الناس لقبولها، والتي يسهل علي نشرها. ثم يقول موسى ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾.. أي وفَّقني لبيانها وتبليغها على أحسن وجه، واصرف طبائعهم إلى هذا التعليم حتى يقبلوه.

إن دعاء موسى ﷺ هذا يكشف لنا أن الإنسان لا يمكن أن يهتدي إلا بهداية الله تعالى، وليس بوسع أحد أن يهدي الناس بالخطب الرنانة والأدلة الدامغة. ولذلك يدعو هنا موسى ﷺ أن يا رب وفَّقني للعمل بتعليمي، ويسر للناس أيضاً العمل به.

إن هذه الآيات تبين لنا فن التبليغ، وهو أن لا ينفك المرء في الدعاء كل حين. فيجب على دُعائنا أن يواظبوا على الدعاء دائماً.

وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٠﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٢١﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٢٢﴾

وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

وزيراً: الوزير؛ المعاون. والأزْرُ: الظهر؛ القوة (الأقرب).

التفسير: إن هذه الآية تبين لنا الفرق الشاسع بين موسى ونبينا ﷺ. فموسى ﷺ حين تلقى أول وحي دعا الله تعالى أن يعطيه مساعداً ويزيده به قوة. أما النبي ﷺ فلا شك أنه قد تردد لبعض الوقت على سبيل التواضع وقال إني لا أصلح لحمل هذا العبء الثقيل، ولكنه استعد فيما بعد لأن يحمله وحده. فداه أبي وأمي وجسدي وروحي! ومن أجل ذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ (الجن: ٢٠).. أي حين يقوم عبدنا محمد رسول الله لإقامة عبادة الله في العالم يسرع الناس للهجوم عليه مجتمعين. فنبينا ﷺ قد ظل صامداً طوال عمره وحده يتحمل طعن الأعداء. فقد ورد في التاريخ أن أحد القواد المحنكين خرج من قبل الكافرين في وقعة أحد، فأراد بعض الصحابة التصدي له، فقال الكافر إني لا أريد إلا نزال محمد وحده. فأمرهم رسول الله

ﷺ أن يُخلوا سبيله. فلما اقترب طعنه النبي ﷺ بحرته فخدش بها خدشاً غير كبير، كأنه لمسه بما فقط، ولم يحاول قتله. ولكن الكافر هرب وقد رفع عقيرته. فقال له قومه لم تصرخ من جراء هذا الخدش البسيط وأنت محارب محنك جلد؟ قال إنكم لا تدرون أن في نصل حربته نار جهنم كلها. وأرى أن كل جسدي يحترق (السيرة الحلبية، الجزء الثاني ص ٢٤٤).

وفي غزوة حنين إذ كان العدو يرشقون المسلمين بسهامهم من على الشعاب والتلال، ولم يستطع الصحابة الثبات في ساحة القتال نتيجة فرار المسلمين الجدد المكيين من الميدان، ركض النبي ﷺ حصانه وخاض وحده صفوف الكفار. فتقدم أبو بكر ﷺ وأخذ زمام فرسه ﷺ وقال يا رسول الله، انتظر المسلمين قليلاً، فسيجتمعون حولك في ثوان. فدفع النبي ﷺ أبا بكر من طريقه بشدة، وقال اترك زمام حصاني، ثم ركض ﷺ بحصانه ناحية العدو وهو يرتجز: أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب (البخاري: كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم). أي أيها الناس أنا النبي الموعود لكم، ولست بكاذب. ولن تقدرُوا على قتلي. بيد أنني أنبهكم أن تتخذوني إلهاً برؤية آيتي هذه؛ فإني مجرد بشر وأنا ابن عبد المطلب.

ما أبعد البون بين المسيح وبين سيدي المصطفى ﷺ! فقد بات المسيح الليلة كلها يدعو الله تعالى قائلاً: "يا أبتاه، إن أمكنَ فلتعبرْ عني هذه الكأس" (متى ٢٦: ٣٩)؛ ومع ذلك اتخذ الناس إلهاً. ثم إنه لم يبق معلقاً على الصليب إلا ساعتين، ومع ذلك أخذ يشتكي إلى الله تعالى قائلاً: "إيلي إيلي لما شَبَقْتَنِي" (متى ٢٧: ٤٦). ولكن سيدي محمداً ﷺ كان محاصراً بين الأعداء الذين كانوا على الجبال، وكانوا يرشقونه بالسهم من اليمين والشمال، وكان أصحابه قد فروا عنه نتيجة خدعة؛ ولكنه لم يقنط ﷺ من ربه أبداً، بل ظل يتقدم إلى العدو، ولكنه صرح أيضاً إنما أنا بشر ولست بآله. ما أشدَّ عماية أولئك الذين يرفعون المسيح إلى السماء بالرغم من هذه الوقائع والحقائق، ويريدون أن يدفنوا محمداً رسول الله ﷺ في الأرض! والله، لو حُقَّ لأحد أن يصعد في السماء فإنما هو محمد رسول الله ﷺ، ولو كان أحد

يستحق أن يُدفن في الأرض وإنما هو المسيح الناصري ﷺ! آه، إن الله وحده القادر على أن يهب للناس عيوناً يبصرون بها مقام كل من النبيين.

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٦﴾

التفسير: إن موسى يطلب من الله تعالى معاوناً لكي يسبح الله كثيراً، أما محمد رسول الله ﷺ فكان وحده يقوم بهذه المهمة، قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ (المزمل: ٢١).. أي تقوم كل هذا الوقت في الصلاة تسبح الله تعالى وتحمده، كما يقتدي بك طائفة من المؤمنين في عبادة الله وذكره. فهذه الآية أيضاً تكشف لنا الفرق بين نبينا محمد ﷺ وموسى ﷺ.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٢٨﴾  
إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٩﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي  
الْإِمِّمْ فَلْيَلْقِهِ الْإِمُّمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۗ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ  
مَحْبَتَ مَنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ  
عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۗ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَتَلْتَ  
نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۗ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ  
جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٣١﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

لُتْصَنَعُ: الصُّنْعُ: إجادَةُ العمل (المفردات).



على عيني: يقال "أنت على عيني": أي في الإكرام والحفظ (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿لَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ لكي تتربى تحت رحمتنا ورعايتنا تربية خاصة. واصطنع فلاناً لنفسه: اختاره لنفسه (الأقرب).

النفسي: قال الله تعالى لموسى ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَا مُوسَى﴾ أي لقد أعطيناك كل ما سألت. وكان هذا القول يتضمن وعداً ربانياً للنبي ﷺ بأنه تعالى سيعطيه أيضاً كل ما سأل.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.. أي لقد صنعنا بك المعروف من قبل أيضاً، حين ألقنك أمك في النهر بحسب أمرنا. ثم دبرنا لإرجاعك إلى حضن أمك ثانية. ولقد أرينا آية إنقاذك من النهر لكي تتربى تحت رعايتنا وفضلنا.

وهذه إشارة إلى ما ورد في التوراة بأن أم موسى الكليلا وضعت في سلة وألقته في النهر، فلم تزل السلة تسبح حتى رست بالشاطئ حيث كانت بنت فرعون تنتزه. فلما رأت الصبي في السلة رقت له، فقالت: هذا من أولاد العبرانيين، وسوف نربيه. ولكنها لم تدر كيف ترضعه. وكانت أخت موسى تمشي معه تراقبه من الشاطئ من فرط المحبة. فلما رأت أن ابنة فرعون قد أعجبت بالصبي وتريد تربيته، ولكنها محتارة في أمره، تقدمت إليها ودلتها على عنوان أمها وأخبرتها أن أمي سترضعه. وهكذا رجع موسى إلى والدته ثانية.

وتقول التوراة بهذا الصدد إن فرعون كان قد أمر بقتل أبناء الإسرائيليين (الخروج ١: ١٦-٢٢)، فخافت أم موسى عليه، فـ"أخذت له سلفاً (أي سلة) من البردي وطلته بالحمم والزفت، ووضعت الولد فيه، ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر" (الخروج ٢: ٣).

هناك فرق بين بيان التوراة والقرآن. يقول القرآن إن الله تعالى أوحى إلى أم موسى وأمرها ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾.. أي ضعي موسى في التابوت ثم ضعي التابوت في النهر. بينما تقول التوراة إنها وضعت في سلة من البردي.

ولكن هذا الاختلاف ليس بشيء. ذلك لأن الناس من البلاد المختلفة يصنعون الأواني من أشياء مختلفة. فإن الساكنين على شواطئ الأنهار يصنعون من ألياف عشب النهر سلات يضعون فيها حاجاتهم، وهذه السلة ستسمى في العربية تابوتًا صغيرًا؛ إذ ليس ضروريًا أن يكون التابوت مصنوعًا من الخشب. فثبت أن هذا الاختلاف ليس حقيقيًا. بيد أن الكلمة القرآنية أصح لأن الشيء الذي يوضع في النهر لا بد أن يكون مما لا يدخل فيه الماء. ولذلك تجد التوراة أيضًا تقول إن أم موسى عليها السلام طلت تلك السلة بالحمر والزفت تسد بهما ثقوبها. ومن الواضح أن السلة المطلية كانت كالتابوت فعلاً.

ونجد تشابهاً بين موسى والنبى ﷺ في أمر الرضاعة أيضًا. ولكن ثمة فرق أيضًا، وهو أن أخت موسى هي التي سعت لإرضاعه، أما النبى ﷺ فالله تعالى نفسه أتى بمرضع له ﷺ. ورد في كتب التاريخ أن النسوة من القرى المجاورة لمكة كن يحضرن مكة في موسم معين ويأخذن معهن أطفال أترىاء القوم للرضاعة. ولما بلغ النبى ﷺ بضعة أشهر، وحن الموسم جاءت من خارج مكة نسوة كانت بينهن حليلة التي صارت مرضع النبى ﷺ فيما بعد. وكانت حليلة من أسرة فقيرة لذا رفضت جميع البيوت الثرية التي ذهبت حليلة إليها أن يعطوها أولادهم للرضاعة ظنًا منهم أنها امرأة فقيرة ولن تستطيع رعاية أولادهم على ما يرام. فلم تزل حليلة تتردد إلى البيوت كل اليوم وتُرفض من أهلها. ولم تزل والدة سيدي ﷺ السيدة آمنَةُ الأرملة تنتظر في بيتها مجيء مرضع مناسبة، ولكن لم تُرد أي من المرضع حتى أن تطل إلى بيتها لظنهن أنها أرملة فقيرة، ومن الذي سيحزيهن على رضاعة ابنها اليتيم. فلما رفضت حليلة من كل بيت في مكة رغم بحثها عن طفل طوال اليوم فكرت أنها لو رجعت إلى بيتها بغير طفل لحقها عار عظيم. فقالت في نفسها حسنًا، إذا لم يكن وليد من الأسر الغنية من نصيبي فلاأخذ على الأقل محمدًا الولد اليتيم من الأسرة الفقيرة (السيرة الحلبية: الجزء الأول، ص ٨٩ باب ذكر رضاعه ﷺ).

وهذا يعني أن حليلة التي رفضها أهل مكة كلهم أخذت الولد الذي رفضته جميع المرضع. وهكذا تحققت النبوة الواردة في الصحف الأولى كالآتي: "الحجرُ

الذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأسَ الزاوية" (متى ٢١: ٤٢). ذلك أن المروض أيضاً كالبنّاء تربي الوليد، وتجعله يقف على قدميه.

قصارى القول إن الوليد المروض من قبل المراضع كلهن أتى في بيت حليلة. وهكذا هيأ الله تعالى لرسولنا الكريم ﷺ مكاناً صحياً يساعد على النمو السليم. ولكن انظرُ إلى غيرة الله تعالى، فإن ذلك اليتيم الذي ترددت حليلة في أن تأخذه إلى بيتها قد جعله الله تعالى يخوض حرباً ضد قومها ويغلبهم، ويقع عدد كبير من قبيلتها أسرى في أيدي المسلمين في غزوة حنين، بالإضافة إلى كثير من المواشي. وكان الأثرياء المتغطرسين كفرعون من قبيلتها مترددين في أن يقولوا لأبناء حليلة الفقراء أن يشفعوا لهم عند رسول الله ﷺ، ولكنهم اضطروا أخيراً للذهاب إلى أولادها وقالوا لهم إن القوم ينظرون إليكم؛ فارجو أن تذهبوا إلى محمد (ﷺ) وتشفعوا لنا. وكان النبي ﷺ قد انتظر طويلاً أن يأتي أحد من قوم حليلة بالشفاعة لهم، ثم بعد انتظار طويل وزع غنائم قومها على جنود المسلمين، ولكنه لم يكن قد وزع الأسرى بين القوم بعد. ولما حضرت إحدى بنات حليلة النبي ﷺ تشفع عنده لقومها قال لها متأسفاً لقد انتظرتكم طويلاً، وقمت بتوزيع أموال الغنائم مضطراً. فاختاري الآن أحد الأمرين: هل أرد لك الأموال أم الأسرى؟ فقالت بعد التشاور مع قومها نريد الأسرى لا الأموال. فتكلم النبي مع جنوده، فقالوا يا رسول الله، نحن نطلق سراح كل أسير لهم عندنا بكل سرور. فأطلق على الفور سراح ستة آلاف أسير لبني هوازن (السيرة الحلبية الجزء الثالث ص ١٤٣-١٤٥).

قارن الآن بين حدث رضاعة النبي ﷺ وحدث رضاعة موسى عليه السلام، فرغم وجود التشابه بينهما تجد أن حدث رضاعة النبي أعظم شأنًا آلاف المرات. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٤﴾

### شرح الكلمات:

وَلَا تَنِيَا: نهيٌ من ونى الرجل في الأمر: فتر وضعف (الأقرب).

التفسير: هنا أيضاً نجد تشابهاً بين النبي ﷺ وموسى ﷺ. فقد أرسل الله تعالى نبينا ﷺ إلى قوم يشبهون قوم فرعون حيث قال ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ (المزمل: ١٦).. أي أننا بعثنا محمداً شاهداً عليكم كما أرسلنا موسى إلى فرعون. ولكن هناك فرق وهو أن قومه لما هدده بالقتل كما هدد فرعون موسى ﷺ، لم يخف النبي ﷺ من تهديدهم، بل لم يزل يبلغهم رسالات الله تعالى بكل شجاعة وبسالة. فلما رأى رؤساء مكة أنه قد بدأ البعض منهم يرفضون الآلهة الباطلة، ويعبدون الله وحده علانية، فقدوا الصبر، فاجتمعوا وأتوا عم الرسول ﷺ أبا طالب، فهددوه قائلين إننا لم نتعرض لابن أخيك حتى الآن من أجلك، ولكن الأمر قد تجاوز الحد. إنه يعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عن ذلك أو نحاربه وإياك أيضاً، وسنحرمك السيادة. وكان التخلي عن السيادة أمراً صعباً جداً على أبي طالب، فوعدهم بأنه سيحاول كف ابن أخيه عن ما يفعل. فلما انصرفوا دعا أبو طالب النبي ﷺ وقال له يا ابن أخي، إن قومك ثائرون ضدك جداً، وكادوا يقضون عليك وعليّ أيضاً. فأقول نصحاً لك وعطفاً عليك ألا تعيب آلهتهم، فإني لا أقدر على مقاومة القوم كلهم. وسالت الدموع من عين أبي طالب عند هذا الكلام. فقال النبي ﷺ لعمه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر الذي بعثني الله من أجله فلن أتركه أبداً. فإذا كنت يا عم لا تريد الوقوف بجانبني بسبب ضعفك وخوفاً من أذى القوم، فلتتبرأ من ذمتي وأماني. فإني لن أتخلي عن إشاعة التوحيد أبداً، وسأقوم بهذا الواجب إلى أن يتوفاني الله تعالى. فكان لجواب النبي ﷺ

وقع عظيم على عمه، فقال له ﷺ اذهب يا ابن أخي، واعمل ما بدا لك. فإني لن أخذك وإن خذني قومي (السيرة النبوية لابن هشام: وفد قريش يعاتب أبا طالب). كذلك لما وقع النبي ﷺ في حفرة من شدة الجراح خلال غزوة أحد، وأشيع بين القوم أنه قد استشهد، فرح العدو بالخبر فرحاً عظيماً. فصعد أبو سفيان جبلاً ونادى: هل في القوم محمد (ﷺ)؟ وكان كثير من المسلمين جرحى ومشتتين، وكان هناك خطر لهجوم الكفار ثانية، لذلك أمر النبي أصحابه أن لا يردوا على أبي سفيان. فلما رأى أن المسلمين صامتون تماماً، ولا أحد منهم يرد عليه، ظن أن محمداً ﷺ قد استشهد فعلاً. فنادى قائلاً هل في القوم أبو بكر؟ فنهى النبي ﷺ أصحابه عن الرد. فظن أبو سفيان أن أبا بكر أيضاً قد قُتل. فقال بأعلى صوته: هل في القوم عمر؟ فنهى النبي أصحابه عن الجواب مرة ثالثة. فأيقن أبو سفيان بقتل عمر أيضاً، ورفع من فورة الحماس هتافاً: "أَعْلُ هُبْلُ، أَعْلُ هُبْلُ" .. أي العظمة لـ "هُبْلُ" أحد أصنامهم إذ قضى على أعدائه كلهم. فيما أن النبي ﷺ سبق أن نهى الصحابة عن الرد ثلاث مرات، فالتزموا الصمت هذه المرة أيضاً ولم يردوا على هتافه. فلم يتمالك النبي ﷺ نفسه وقال لهم في ذروة حماسه: لماذا لا تردون عليه ولم لا تقولون: الله أعلى وأجلُّ، الله أعلى وأجلُّ. ففعلوا. فقال أبو سفيان: لنا عَزَى ولا عَزَى لكم. فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يقولوا: الله مولانا ولا مولى لكم (السيرة الحلبية، الجزء الثاني ص ٢٤٤-٢٤٥).

فترى أنه بالرغم أن النبي ﷺ كان يدرك حساسية الموقف تماماً، وكان يعلم جيداً أنهم لو ردوا على هتاف العدو فسوف يشن عليهم الهجوم ثانية، إلا أن أبا سفيان لما هاجم توحيد الباري تعالى لم يتمالك النبي ﷺ نفسه وردَّ على أبي سفيان بأنك كاذب، إذ لا حول لهبل أو العزى، إنما الحول والقوة لإله السماوات والأرض الذي لا تسقط ورقة بدون إذنه.

باختصار فقد كان النبي ﷺ يتصدى للعدو كبطل مغوار في أشد المواقف خطورة، غير خائف ولا هيّاب.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٥﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ  
 أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٦﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ  
 وَأَرَى ﴿٤٧﴾ فَاتَّبَعَهُمَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 وَلَا تَعْذِّبْهُمْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِعَايَةِ مَنْ رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى  
 ﴿٤٨﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٩﴾

### شرح الكلمات:

يفرط: فرطه: آذاه. وفرط في الأمر: قصر (الأقرب).

التفسير: هنا أيضاً نجد تشابهاً بين النبي ﷺ وموسى عليه السلام. ولكن مع فارق، وهو أن الله قد نصح موسى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾، بينما يخبرنا الله تعالى عن محمد رسول الله ﷺ أنه وأصحابه يبلغون رسالات الله تعالى غير خائفين من لومة لائم. قال الله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: ١٠).. أي يا محمد، يريد الكفار أن تكون لئنا معهم بعض الشيء بصدد دينك فيلينوا معك، ولكنك لا تقبل عرضهم. وقال الله تعالى عن المؤمنين ﴿أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٣٠).. أي مهما لان العدو في موقفه ليلين أصحاب محمد في دينهم فإنهم لن يلينوا أبداً، ولكن إذا تعامل معهم أحد من المؤمنين بشدة فلا يكثرثون لما فعل وينسون.

ثم يقول الله تعالى ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾. وهنا ينشأ سؤال: هل علم الله تعالى أن فرعون يتذكر أم لم يعلم؟ فإذا كان تعالى على علم بأنه لن يؤمن فلماذا قال ﴿لعله﴾؟ وإذا قيل أن "لعل" يفيد اليقين فقد ثبت بطلان ما قال الله تعالى، والعياذ به، لأن فرعون لم يؤمن. فما معنى قوله تعالى ﴿لعله﴾ إذن؟

والجواب: صحيح أن "لعل" يفيد الشك، ولكن يقول اللغويون إنه يفيد الطمع والأمل أيضاً، ولكنه لا يدل بالضرورة على طمع القائل، بل يدل أيضاً على طمع المخاطب تارة، وعلى طمع السامع تارة أخرى (الأقرب). وفي قوله تعالى ﴿لعله﴾

يتذكر أو يخشى ﴿ إشارة إلى طمع موسى وهارون، والتقدير: "قولاً له قولاً لئنا راجين أن يتذكر". فلا إشكال بسبب ورود لفظ "لعل" هنا. علماً أن هذا هو الأسلوب المتبع عادة في وحي الله الذي فيه بعض الأنبياء، أي أن الفريق الآخر إذا أصلح موقفه نجا وإلا هلك.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٥١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٢﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥٣﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٤﴾

**التفسير:** سمع فرعون من موسى عليه السلام ذكر صفات الله تعالى وبأنه تعالى يُنزل الوحي أيضاً، فبما أنه كان يجهل هذه الأمور فقال في دهشة: يا موسى، ما هذا الإله الجديد الذي لم نسمع عنه من الأولين قط؟ قال موسى ألا ترى أن الدنيا تدار بنظام واحد، وأن كل مخلوقٍ مزوّدٌ بما يحتاج إليه من الأعضاء، وعالمٌ بطريقة استعمالها منذ لحظة خلقه.

فقال فرعون لموسى ﴿فما بال القرون الأولى﴾؟ أي إذا كان الأمر كما تقول فماذا يكون مآل آباءنا الذين كانوا يجهلون هذه الأمور؟ وقد أراد بذلك استثارة عواطف القوم ضد موسى مستخدماً نفس السلاح الذي ما زال أعداء الأنبياء يستخدمونه في كل عصر. إن أهل الباطل يحاولون دائماً إثارة عواطف القوم ضد أهل الحق، فيقولون لهم مثلاً إذا كنتم صادقين فهل كان آباؤنا كاذبين ومن أهل النار؟ عند ثورة العواطف يغيب عن أنظار القوم كل دليل وبرهان. فمثلاً إذا دعوت إلى التوحيد يهّب الواحد من المشركين ويقول لقومه انظروا ماذا يقول هذا؟ إنه يقول إن آباءكم كانوا جاهلين حمقى وأغبياء حيث سجدوا للأصنام والأوثان! فمن ذا الذي يصدق أن آباءه كانوا جاهلين؟ إن الكافرين أيضاً يحبون والديهم، فلا يتحملون الطعن فيهم. فحين يُعرض عليهم الشرك بهذا الأسلوب

ويقال لهم إن آباءكم كانوا مشركين، ويقول هؤلاء عن آبائكم إنهم كانوا جاهلين وكافرين، فإنهم يثورون ضد دعاة التوحيد قائلين إن هؤلاء يسبون آباءنا، فاقتلوهم، وانهبوهم، واطردوهم من بلدكم؛ فإننا لن نتحمل الإساءة إلى آبائنا. فأعداء الحق يلجئون إلى هذا السلاح الخطير دائماً، ولكن هذا السلاح لم يفلح في الدنيا أبداً. بل إن الفطرة السليمة هي التي تتغلب عليه في كل عصر.

أما قوله تعالى ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾.. فمعناه أن موسى عليه السلام أجاب فرعون وقال فيما يتعلق بمآل الآباء فإنما علمه عند الله تعالى لأنه تعالى سيحاسب كل إنسان بحسب ظروفه وأحواله. أنا لا أعلم إن كان آباؤكم قد بلغهم الحق أم لا، وهل تمت عليهم الحجة أم لا؟ إن الجزاء منوط بالعلم الكامل بالأحوال والظروف، وهذا العلم ميسر لله وحده، فكيف أقول شيئاً بهذا الصدد وأنا لا أعلم لي بذلك.

لقد أكد سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أيضاً هذا الأمر فقال إن الثواب أو العقاب وثيق الصلة بإقامة الحجة، وإقامة الحجة أمر يخص الله تعالى وحده، ولا علم للعباد بذلك. فإن حضرته لما اهتمه بعض الأشرار بأنه قال إن كل من لا يؤمن به فهو في النار، أنكر ذلك تماماً، وقال كيف يمكن أن أقول ذلك وأنا خادم لسيدي محمد المصطفى عليه السلام، الذي أؤمن أنه لن يدخل النار من الكافرين به إلا الذي قد تمت عليه الحجة. فقد كتب عليه السلام في كتابه "حقيقة الوحي" ما تعريه:

"لقد اهتمني الدكتور عبد الحكيم خان في كتبه "المسيح الدجال" وغيره من الكتب بأنني قد قلت في بعض كتبي أن الذي لا يؤمن بي كافر وسيدخل النار وإن كان يجهل حتى اسمي، وإن كان مقيماً في بلد لم تصل إليه دعوتي.

إن هذا إلا افتراء مبين من قبل هذا الدكتور، إذ لم أقل هذا في أي كتاب أو إعلان قط. ومن واجب هذا المفترى أن يقدم كتاباً لي قلت فيه هذا الكلام. واعلموا أنه قد افتري علي هذا الافتراء بمكره كعادته. إنه أمر لا يقبله العقل بالبداهة، إذ كيف يمكن أن يؤاخذ مَنْ لا يعرف حتى اسمي أيضاً... وهذه هي عقيدتي بالنسبة للإيمان بالنبي عليه السلام أيضاً.. أعني أن الذي قد بلغته دعوة النبي عليه السلام،



ووصله خبر بعثته، وتمت عليه الحجّة عند الله تعالى بصدد رسالة النبي ﷺ، فإن هذا لو مات على كفره فإنه سيدخل النار خالدًا فيها. وإن الله تعالى وحده يعلم هل تمت الحجّة على أحد أم لا. بيد أن العقل يفيتي بأن الناس لما كانوا يتفاوتون كفاءةً وفهمًا وذكاءً فإن إتمام الحجّة أيضًا لن يكون على غرار واحد (حقيقة الوحي ص ١٨٤-١٨٥).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ  
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿١٠٥﴾ كُلُوا وَارْعَوْا  
أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٠٦﴾

#### شرح الكلمات:

شَتَّى: الشتى جمع الشتيت ومعناه المفرّق (الأقرب).

التفسير: بعد أن قال موسى لفرعون إنما الجزاء بيد الله تعالى وحده الذي عنده علم كل شيء، فما يمكنني أن أخبرك عن مصير آبائك، حاول شرح الأمر له أكثر فقال ألا ترى كيف خلق الله الأرض خلقًا يستطيع به الإنسان الانتفاع بها إلى أقصى حد ممكن. ثم إنه تعالى جعل في الأرض سبلاً تمكّن الإنسان من السفر من قطر إلى آخر. وأنزل من السماء ماء تخرج به الأرض نباتها لكي تأكلوا أنتم ودوابكم أيضًا. فلم لا تدركون من هذه الظاهرة أن الله تعالى ينزل من السماء أيضًا الماء الروحاني.. أي الوحي.. ويخرج به علومًا روحانية شتى لكي ينتفع بها الناس من الطراز الأول، وغيرهم أيضًا الذين هم كالأنعام.. كل بحسب قدره وكفاءته.

ثم قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾.. أي أن الذي هو معتاد التدبر يمكن أن ينتفع بهذا المثال نفعًا كبيرًا. بمعنى أن الماء المادي كما ينزل من السماء كذلك

ينزل الماء الروحاني أي الوحي والإلهام أيضاً من السماء، وأنه يمد بالغذاء الناس والأنعام، أي الذين هم ذوو روحانية عالية، وأيضاً الذين هم الضعفاء روحانياً. ويتضح من قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أن النبات أيضاً أزواج. لم تكن الدنيا تعلم حتى قبل قرن من الزمان أن النبات أزواج إلا عن أشياء قلائل مثل النخل وغيره. أما الآن فقد أثبت العلم عن شتى النباتات أنها أزواج. وإن في ذلك لبرهاناً ساطعاً على صدق القرآن الكريم.

### مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥١﴾

**التفسير:** تناولت الآيات السابقة الحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام وفرعون، والذي بين فيه موسى عقيدته عن الله تعالى بكل وضوح وجلاء. أما الآن فيقول الله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.. أي أننا خلقناكم من هذه الأرض، وإليها نرجعكم بعد الموت، ومنها نبعثكم ثانية. وقد أطمأنت الله اللثام عن هذه الحقيقة لأن فرعون وقومه كانوا يعبدون النجوم، وكانوا يعتقدون أن الأرواح تنزل من شتى الكواكب والنجوم وتتولد ثم ترجع إليها تارة أخرى (موسوعة الأديان: p. 155 The Egyptian Religion; Orisis).

وبتأثير مثل هذه العقائد تشكلت في الهند قبائل مختلفة مثل "سورج بنسي" و"جنر بنسي" وهذه الأسماء كلها ترمز إلى أن أرواح أفراد هذه الأسر قد نزلت من الشمس والقمر. فبما أن قوم فرعون كانوا يعتقدون أن النجوم لها دخل وتصرف في إدارة العالم فأبطل الله تعالى هنا عقيدتهم، وبين أن الله تعالى وحده يدير هذا العالم، وأن جميع الأرواح تقع تحت قبضته وتصرفه عز وجل.

إن هذه الآية تدل على وفاة المسيح الناصري عليه السلام أيضاً، حيث بين الله تعالى أن حياة الإنسان وموته وبعثه ثانية كل ذلك منوط بهذه الأرض نفسها. فما دامت هذه قاعدة كلية مسلماً بما فكيف يجوز صعوده عليه السلام إلى السماء.

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ

أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يٰمُوسَىٰ ﴿٥٨﴾

**التفسير:** هنا يذكر الله تعالى مكرًا آخر لفرعون. فإنه لم يقل لموسى إنك تريد الإطاحة بعرشي لكي تتربع عليه أنت، بل عرض الأمر أمام القوم كقضية قومية فقال له: هل جئتنا لتطردنا بمكائدك من بلدنا؟ وهذا يعني أنه أراد إثارة الشعب وإلهاب الحماس فيهم ضد موسى حيث قال إنه يريد طردكم من أرضكم ليستولي على الحكم. علمًا أن فرعون كان يحكم مصر في ذلك الوقت كما حكم الإنجليز الهند فترة من الزمن، لذلك رأى من الضروري أن يثير السكان الأصليين ضد موسى حتى يضيفي على القضية طابعًا قوميًا.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۗ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ

وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٩﴾

**شرح الكلمات:**

**لا نُخْلِفُهُ:** أخلفه ما وعده: قال شيئًا ولم يفعله (الأقرب).

**سُوًى:** السُّوى: العدل. ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾.. أي مكانًا مُعلمًا أي ذا معلّم (الأقرب).. بمعنى أن يكون مكانًا معروفًا لدى الجميع.

**التفسير:** يبدو أن فرعون كان أكثر عدلاً من أهل مكة وكذلك من المشايخ والقسيسين في هذا العصر. ذلك لأنه حدد بالتشاور مع موسى **الكَتِيبَةَ** مكانًا للمناظرة لا يكون فيه خطر الشغب على موسى بل يتمتع بكل حقوقه. ولكن المشايخ أو القسيسين عندما يدعون خصمهم للمناظرة يدعونهم إلى مكان يكثر فيه أتباعهم، وذلك لكي يثيروا الشغب ضد خصومهم ويوسعوهم ضربًا ولكمًا.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٦٠﴾

**التفسير:** كان موسى عليه السلام يريد أن تتم المناظرة في مكان يكون سويًا للطرفين، لذلك قال ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.. والمراد من يوم الزينة يوم العيد. وكان ذلك يومًا مقدسًا لديهم لا يُعتدى فيه على أحد كأيام الحج المقدسة عند العرب. ثم إنه عليه السلام حدد وقت الصباح وهو وقت جيد، إذ يكون الدماغ نشيطًا حينذاك ويستوعب الأمور بسهولة، أما فيما بعد فيكون متعبًا لكثرة الأشغال، ويصعب عليه التركيز.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦١﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَايَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى ﴿٦٢﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٣﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿٦٤﴾

**شرح الكلمات:**

**فَيُسْحِتَكُمْ:** أسحت الشيء: استأصله (الأقرب).

**المثلى:** مؤنث الأمثل أي الأفضل (الأقرب).

**التفسير:** ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ...﴾ هذه مقولة أصحاب فرعون حاولوا بها إلهاب مشاعر القوم ضد موسى وهارون عليهما السلام. قالوا إنهما يريدان طردكم من البلاد بخدعهم ومحو دينكم الذي هو أفضل الأديان. وهذا يعني أنهم سعوا لإثارة القوم ضدهما سياسيًا ودينيًا.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴿٦٥﴾

**التفسير:** إن الأكثرية العظيمة من الناس اليوم يرون، لسوء فهمهم، جواز استخدام الطرق غير المشروعة بكل أنواعها من أجل تحقيق هدف نبيل. والحق أن

محاولة نيل هدف بطرق غير مشروعة تشكل بحد ذاتها دليلاً على زيف ذلك المبدأ. هذه هي المكيدة التي لجأ إليها فرعون وأصحابه حيث حرضوا القوم على أن لا يدخروا وسعاً في اللجوء إلى كل مكيدة وخذعة وزيف بهدف التغلب على موسى. عليهم أن يستنزفوا كل مكر وتديير في هذا السبيل بغض النظر عن كونه مشروعاً أم غير مشروع.

قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَٰئِكَ مِنَ الْقَائِلِينَ ﴿١١﴾

التفسير: استعدّ السحرة لمواجهة موسى عليه السلام، وبالرغم من أن فرعون كان معهم وبرغم أنهم كانوا مصابين بالكبر والغرور إلا أنهم قالوا لموسى في أدب: هل أنت ستبدأ أم نحن نبدأ؟ وقد كتب صاحب "مثنوي رومي" أمراً لطيفاً بهذا الصدد، فقال إن أدب السحرة هذا هو الذي تداركهم، فإن الله تعالى الذي يعطي الجزيل على عمل بسيط قدّر عملهم هذا، ووفقهم للإيمان. (مثنوي مولوي معنوي ص ١٨٥)

قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۚ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

تَسْعَىٰ ﴿١٢﴾

التفسير: يبدو من قوله تعالى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أنه كان بداخل حبال السحرة وعصيهم الزئبق أو اللوالب المرنة، فكانت تتحرك نتيجة الضغط عليها. وهناك مخترعات مماثلة لذلك تُستورد من أوروبا في هذه الأيام بكثرة. ويبدو أن مثل هذه الصناعة كانت موجودة في مصر، وهي التي قد استعملها السحرة.